

المكتبة الإسلامية اليوم تتجدد بمؤلفات باللغة العربية وبغيرها، ترصد ما يحاك ضد القرآن والإسلام، وهناك مراكز وهيئات وأشخاص نذروا جهودهم لسد هذه الثغرة الإستراتيجية . تقيم هذه الجهود بالمقارنة مع ما يحاك ظلم محبط، لأن الأمة الإسلامية تعيش فترات ارتباك عميقة ضيقت فيها بوصلة اليقين والحق ولأن الآخر المتربص يحسن للأسف التخطيط لمزيد من الارتباك ذاك .

الدراسات الاستشراقية اليوم تأخذ مسارات جديدة لها علاقة بالتحولات الجيوسياسية الكبرى في العالم، لذلك يميل الباحثون في هذا المجال المعرفي إلى دراسة الإسلام السياسي وربطه بالقرآن ولا يكون إلا خدمة لإستراتيجية شيطنة الإسلام وكتابه .

الدراسات المتخصصة في القرآن مازلت موجودة وتتطور ضمن مسارها الخاص الذي تميز خصوصا في المدرسة الألمانية والمدرسة الفرنسية، ولكن وجب التنبيه أيضا أن الاستشراق الإعلامي القائم على التهويل والتعالم والإبهار اللفظي استولى على مساحات واسعة من اهتمام الآخر بالإسلام .

انتشر القرآن بحكمة مرسله عز وجل، وقدر للقرآن أن ينتشر حتى عن طريق أعدائه باقائماهم ودراساتهم المشبوهة من فريق، وشبه الحيادية من فريق لا يؤمن بإعجازه ولا بمصدره الإلهي . وكانت الاتهامات التي تكيلها دوائر التزوير ضد القرآن والإسلام عموما مدعاة لزيادة الإقبال على اقتناء القرآن والاطلاع عليه وعلى الدين الذي جاء به.

المعركة هنا حاسمة بين جلد الفاجر وكسل صاحب الحق لأن الباحثين عن معرفة القرآن والإسلام كثيرا ما يتيهون في دهاليز جهود غير منسقة لمسلمين تصدوا لمعركة الردود على الشبهات والتعريف بحقائق القرآن والإسلام

مؤشر المبيعات ومحركات البحث على الإنترنت مثلا تبين هرولة الناس لمعرفة هذا الدين الذي تجد فيه وسائل الإعلام المغرضة مادة دسمة من الاتهامات التي تغذي مساحات النشر والبلث، ويتصدى للكلام عبرها "متخصصون" يعيشون فسادا دون رقيب .

الملاحظة الصادمة أيضا أن من تصدى لنقد الاستشراق وآلياته في الدوائر الغربية من العرب غيب البعد الإسلامي مما يجعل جهود المسلمين اليوم لتطوير خطاب نقدي منهجي معرفي داخلي لإنتاج المستشرقين ملحا .

يقول المستشرق أليكسندر ماكفي: "إن ما يدعو إلى المفاجأة حول الانتقادات الأربعة لعبد الملك، وطيباوي، وسعيد، وتيرنر، في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية هو أنهم بالرغم من معالجتهم للموضوع من وجهات نظر مختلفة : عبد الملك مصري ماركسي، وطيباوي فلسطيني مسلم، وسعيد فلسطيني يتبنى منهج فوكو وفكره، وتيرنر إنجليزي ماركسي وصلوا إلى النتيجة



نفسها، وهي أن الاستشراق -موضوعاً أكاديمياً- مغرّق في العيوب والنقائص، وواقع في أزمة، وبحاجة إلى إصلاح جذري".

إن عدم رغبة إدوارد سعيد الواضحة في أن يضيّن نقد طياوي للاستشراق في دراسته ربما كانت بسبب أن سعيداً غير مرتاح للشعور العميق لطياوي في تمسكه الشخصي بالإسلام، وهذا بيّن في هجومه على التفسيرات الاستشراقية للقرآن، والسبب الثاني أن طياوي -العربي الفلسطيني- نجح في خرق قاعدة الاستشراق، التي بينها سعيد وهي أن الشرق لا يستطيع تمثيل نفسه، لذا فلا بد من أن يمثل أحد⁽¹⁾.

الاستشراق ركز أساساً على الدين الإسلامي في نقده للشرق وإدوارد سعيد بعد كثيراً في كتابه عن هذه الحقيقة البديهية.

إن طياوي لم يخش الغرب في مقالاتيه اللتين نقدتا المستشرقين الناطقين بالإنجليزية، وكتب مبيناً وجهة النظر الإسلامية، ونجح في إقامة نقد قوي لعلماء الاستشراق الناطقين بالإنجليزية، حيث حدد بتفصيل واسع ما يعتقد أنه عيوبه الرئيسة⁽²⁾.

كتاب الطياوي متوفر اليوم إلكترونياً وتراكت بعدة جهود عميقة لباحثين مسلمين تفتنوا إلى ضرورة تحين المناهج والمقاربات في تشريح ما أغرق به المستشرقون المجال الإسلامي من تحقيق وفهرسة وترجمة ونشر لكنوز العقل المسلم.

في مرحلة من الغيوبة الحضارية للمسلمين أغلقوا أسوار العقل عن إنتاج المستشرقين لم يتبهاوا في ذلك أن مؤلفات رئيسية من تحقيق مخطوطات



القرآن والتفاسير وأصول الفقه وعلم الكلام والفقه والتصوف هي من إنتاج العقل الاستشراقي رغم طمس أسماء المحققين في الطبقات التجارية أو تعويض اسم المحقق الرئيسي بمحقق مزيف واعترف علماء المسلمين من غير تردد أن أوائل أساتذة مناهج التحقيق العلمي كانوا مستشرقين .

يمكن فهم سلوك الريبة ضمن مبادئ سد الذرائع والحرب خدعة وبكل ثقة وتوازن تجاوز العقل المسلم هذه المحنة وتعامل مع التراث الاستشراقي بتوازن نفسي وتمكن عقلي وعلمي خصوصا مع الوسائط الجديدة التي تتيح للمتابع تراث المستشرقين بنقرة على الكيبورد .

يقول أحد الباحثين المسلمين : "من حق كل أمة أن يعرف أبنائها ما يقوله الآخرون عنها في عقيدتها وأخلاقها وثقافتها وحضارتها كما أن من حق أبنائها المثقفين أن يتناولوا هذه الأقوال بالتحليل والنقد أن السكوت عنها تسليم ضمني بها فكيف إذا كان القائل ممن ينتمي إلى عالم متطور ومتقدم كالعالم الغربي وكان محور قوله في الوحي السماوي المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله (3) .

يمكن حصر إسهامات المستشرقين في خدمة التراث في خمسة مجالات هي في حقيقتها المجالات المهمة التي يمكن أن يُخدم التراث من خلالها وهي:

- 1- البحث عن المخطوطات والرحلة إليها وجمعها ونقلها وحفظها وصيانتها
- 2- فهرسة المخطوطات وتوثيقها وضبطها وراقيا ووعائيا أو بيليوغرافيا وربما تكثيفها وتلخيصها .
- 3- تحقيق كتب التراث . . .



- 4- الدراسات حول التراث مع العناية بالمعاجم .
- 5- ترجمة التراث إلى اللغات الأوربية .
- 6- نسخ بعض المخطوطات وتحريرها أو تصويرها أو نشر اقتباسات من بعضها⁽⁴⁾ .

ولفت الباحثون إلى حقيقة يكابر البعض في الاعتراف بها : وهي كما يلخصها مازن مطبقاني وهو أحد العاملين في حقل متابعة إنتاج المستشرقين : وما كنا لنعرف الكثير من الكتب التراثية المهمة في التفسير وفي التاريخ إلا بتحقيقات المستشرقين، وعندما تدرس سير المستشرقين تدرك كم كان لديهم من الدأب والصبر والجلد والتحمل والغوص في الكتب، وإنفاق العمر بل إن بعضهم أنفق أمواله من أجل هذا العلم ولم يكن ليخدم إمبراطورية أو حكومة . وإنما كان مترهباً في محراب العلم . وقال عز وجل : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾⁽⁵⁾ .

وفي اعتراف شجاع يدخل في المواجهة والمصارحة مع الذات يضيف متخصص آخر في تبيان أن الكثير من مخطوطاتنا المخزنة عندنا ضاعت واستيلاء المستشرقين على مخطوطاتنا في هذا الجو من الإهمال يقود إلى القول أن سرقة المخطوطات فيه فائدة :

مادام السارق يحترم المخطوطات ويحرص على صيانتها ويقدر قيمتها العلمية في خدمة الحضارة الإنسانية ومن ثم إمكانية الحصول على مصورات منها .. القوم هناك يقدرون قيمتها العلمية أحياناً والمتحفية أحياناً أخرى⁽⁶⁾ .

ومن عمق التجربة المريرة يرصد باحث آخر المشهد المأساوي لوضع المخطوطات في العالم الإسلامي : "يتعذر الحصول على المخطوطة أو صورة منها في كثير من المكتبات العربية إلا أن تظهر كلها لمن يجيز لنفسه أن يرشو أحد القائمين على القسم أو على المكتبة فيحصل عليها كما هي ولا يعلم مصيرها بعد ذلك إذ أنها مسجلة في فهارس المكتبة وليست موجودة على الرفوف وليست في سجلات الإعارة مع أن عندما أصبح في كثير من دور الكتب قطعاً متخفية تباع خفية لمن يدفع أكثر أو ييسط بها في الأسواق العامة وعلى قارعة الطريق هذا على أحسن الأحوال ومن أسوأ الأحوال أن تمزق أوراق المخطوطة وتكون وعاء لنقل المادة المشتراة من الحلوى والبقول والحب وغيرها وكما قال كرد علي لولا عناية المستعربين بإحياء آثارنا لما انتهت تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة وطبقات الحفاظ ومعجم ما استعجم وفتوح البلدان وفهرست ابن نديم ومفاتيح العلوم"⁽⁷⁾.

هذه المصارحة لا تبرؤ المستشرقين خصوصاً الإيديولوجيين منهم من الخراب الذي تسببوا فيه من إخفاء لمخطوطات هامة وتزييف بعضها أثناء تحقيقها وإخراجها والتأويل الذي اتبعوه في فهم بعض محتوياتها .

القرآن أساس الدين و مرمى السهام :

بيّن المؤرخون والمتخصصون في الاستشراق أن : الحرب على القرآن الكريم قديمة وحديثة بدأت منذ البواكير الأولى لنزول القرآن الكريم واندلعت مع أول مجابهة مع الوثنية ... الهجمة المعاصرة على القرآن الكريم أشد ضراوة



من كل ما سبق ومن خلال الفضائيات ومواقع الانترنت بل أن أحد الباحثين الأمريكيين قام بتأليف قرآن مزعوم تحت عنوان "الفرقان الحق" (8).

اهتمام الاستشراق بالقرآن يمكن تتبع مراحلها من خلال الكتب التي أرخت الاستشراق وأيضا المعاجم والموسوعات المتخصصة، وكان الاستشراق الألماني رائدا في الاهتمام بدراسة القرآن فقد اتخذ المجمع العلمي البافاري في مدينة ميونيخ قرارا بجمع المصادر المتعلقة بالقرآن الكريم وقراءاته تحت إشراف المستشرق براجشتريسر بمساعدة مستشرقين آخرين كأوتو بريتل، وتم في إطار هذا المشروع تصوير ما تعلق بالموضوع تصويرا شمسيا فتم تصوير عدة نسخ للقرآن والمصادر المتوفرة.

كما أن المكتبات شهدت اهتمام بعض المستشرقين بتحقيق ونشر مخطوطات خاصة بعلوم القرآن.

من النماذج التي تذكرها مختلف عدة مراجع و بعضها متوفر للباحثين:

- المستشرق الأمريكي "آرثر جيفري" حقق ونشر: "كتاب المصاحف" للسجستاني.
- المستشرق النمساوي "شيرنجر" حقق ونشر: "الإتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي.
- المستشرق الانجليزي "وليام ناسوليز" حقق ونشر: "الكشاف للزخشري".
- المستشرق الألماني فرايتاج "حقق ونشر في لايبزغ: "أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوي".

وحقق المستشرقون أيضا :

- كتاب : "التيسير في القراءات السبع لابن سعيد الداني".
و كتاب : "المقنع في رسم مصاحف الأمصار".
و كتاب : "مختصر الشواذ لابن خالويه".
و كتاب : "غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري".
و كتاب : "معاني القرآن للفراء".
وكتاب : "أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوي".
وكتاب: "فضائل القرآن وآدابه لأبي عبيد القاسم بن سلام".

واهتم بعضهم بالبحث بكل ما يتعلق بالمخطوطات النادرة الخاصة بالمصاحف وعلوم القرآن .

استفاد المستشرقون من العلوم الموجودة في تلك المخطوطات، وأحسن دليل على ذلك اعتماد "نولده" في كتابه عن تاريخ القرآن باعترافيه على مخطوط كتاب : "عدد و آي القرآن" لعمر بن محمد عبد الكافي المتوفى حوالي 400 هـ. (وقد ذكر "نولده" أن الكتاب موجود في مكتبة "وارن" : god lygd 674 والمخطوط متوفر اليوم على الشبكة) .

ملاحقة كل لغم وكل شبهة وإبطال مفعولها علميا يتصدى له المسلمون عبر مختلف الوسائط سواء تلك التي تتطلب صبرا في البحث واجتهادا في المنهج أو تلك التي تخاطب مباشرة عبر وسائط عدة المضللين الذين وقعوا فريسة جيوش التشكيك والتنصير وهذه سنة اتبعها العلماء دائما بغض النظر عن كثافتها :^{١٠}



وكان للعلماء في كل عصر جهد في دفع الشبهات ودحض الافتراءات من أبرزها كتب : - الرد على ابن الراوندي الملحد للجاحظ .

- كتاب : مشكل القرآن / لابن قتيبة الدينوري .
- كتاب : التمهيد وإعجاز القرآن / لأبي بكر الباقلاني .
- كتاب : تنزيه القرآن عن المطاعن / للقاضي عبد الجبار .
- كتاب : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه / لعباس محمود العقاد .
- كتاب : شبهات حول الإسلام / محمد قطب .

وغير هذه الكتب كثير بالإضافة إلى ما تعرض له المفسرون في كتب التفسير وبخاصة :

- معاني القرآن للفراء⁽⁹⁾ .
- الكشف للزمخشري
- والتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للفخر الرازي
- ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني وغيرها⁽¹⁰⁾

المعركة شرسة ومهاجمو القرآن والإسلام لم يتوقفوا يوما بل يطورون باستمرار أدواتهم وخططهم والعالم الإسلامي كثيرا ما يسقط في صراعات هامشية تستنزف طاقاته وتشغله عن المعارك الحقيقية وإثناء ذلك يتساقط البعض في ساحات معارك اليقين ويعجز البعض عن ملاحقة الشبهات :

ينبه الباحثين إلى حقيقة تضع الأمور في نصابها وسط أمواج الارتباط المتلاطمة : عدم قدرة بعض المسلمين على الرد على الشبهات المثارة حول القرآن ليس معناه الهزيمة والعجز وثبوت الطعن الموجه للقرآن فلن تخلو الأرض

من قوائم الله بحجة⁽¹¹⁾: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾
[سورة الحج : 9].

من أجل ما ذكر لابد من رصد كل ما كتبه المسلمون في هذه المعارك لتكون عوناً للذائدين عن حياض القرآن والإسلام :
النظر فيما قدمه الأقدمون من سلفنا الصالح من قواعد وضوابط عند الرد على الشبهات والمطاعن المثارة حول القرآن⁽¹²⁾.

وابراء للذمة عقدياً وأخلاقياً أزال العلماء ذلك الحاجز النفسي الذي منع سابقاً ذوي الكفاءات من دخول معارك اليقين الخطيرة يشرح ذلك محمد حسين الصغير في موسوعة الدراسات القرآنية :

ليس في استقرار أعمال المستشرقين حب بالمستشرقين أو تعصبا لهم بقدر ما فيه من حب للقران الكريم وإعجاب بذيوعه وانتشاره حتى بحثه من لا يؤمن بإعجازه وصنف فيه من لا يراه وحيا إلهيا . لقد ظل القران الكريم مشار دهشة الغربيين من مستعربين ومستشرقين بما أحدثه من تغيير شامل في المجتمع العربي والإسلامي وما أضافه إلى الحضارات الإنسانية من زخم وحياء وما قدمه للثقافة من تطور وتجديد .. طغت على السطح الأكاديمي دراسات الاستشراق القرآنية فاتسم بعضها بالموضوعية وبدا على قسم منها تبعات الهوى حيناً وروائح الاستعمار حيناً آخر وملامح التبشير بعض الأحيان فخلص لنا من كل أولئك مزيج عجيب يدعو إلى الحيرة⁽¹³⁾.

من الخطوات الهامة في معركة حماية القرآن أو بالأحرى حماية المسلمين والعالمين من الافتراءات التي تريد حرمانهم من نوره تم رصد أهم الشبهات التي يثيرها



أولئك المحاربين وقد ذكرها بعض الباحثين تحت عنوان مزاعم المستشرقين حول القرآن أو شبهات المستشرقين حول القرآن أو الغارة على القرآن وغيرها من العناوين التي تحيل إلى محتوى واحد أو متقارب : مُحمَّد مهر علي أشار مثلاً إلى أنه :

- منذ عهد النبي ﷺ والكفار وغير المسلمين يكررون آراء مشركي مكة حيال القرآن.
- منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي على الأخص، أخذ بعض المستشرقين يعيدون شبهات مماثلة حول القرآن بحجج وادعاءات متنوعة أهمها سعيهم بشق الأساليب إلى الاستنتاج أن القرآن الكريم من تأليف مُحمَّد ﷺ من هؤلاء :

رواد المستشرقين (Aloy Spernger) و (William Muir) و (Theodore Noldek) و (Ignaz Goldziher)، و (W. Wellhausen) و (Leon Caetani)،

(David Samuel Margoliouth)

ثم تبعهم آخرون في القرن العشرين الميلادي، وفي مقدمتهم ريتشارد بيل (Ritchard Bell) وتلميذه وليم مونتغمري وات . (William Montgomery Watt) وجميع هؤلاء المستشرقون يسعون بشق الأساليب إلى الاستنتاج أن القرآن الكريم من تأليف مُحمَّد ﷺ .

في الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي بدأ اتجاه جديد بين الجيل الجديد من المستشرقين الذين يتبنون فكرة أن القرآن ليس من تأليف مُحمَّد ﷺ فحسب، بل إنه اتخذ شكله الحالي تدريجياً عبر تطورات وتعديلات تمت في القرنين الأول والثاني من الهجرة .

من بين أصحاب هذه الفكرة (J. Wansborough) و (Bellamy)،
(Toby Lester) (Kenneth Cragg) (Andrew Rippin) و (Patricia Crone)،
و (Michael Cook)⁽¹⁴⁾.

الترجمة جسر العبور:

المعرفة الأولى بالقرآن تكون عن طريق النسخة المتداولة بين كل المسلمين من مختلف المذاهب ومن مختلف الألسن فالنسخة الرسمية هي النسخة العربية المعروفة والتي لا يستطيع الكثير من الباحثين الغربيين المهتمين بالدراسات الإسلامية قراءتها مباشرة وإن قرأها بعضهم مباشرة عجزوا عن استيعاب مفردات القرآن وتراكيبه. إن المرور عن طريق الترجمة لقراءة القرآن الكريم عقبة منهجية ومعرفية لا يمكن لأي باحث غرض الطرف عنها.

غرور بعض المستشرقين جعلهم يخالفون المعلوم بالعلم بالضرورة وهو استحالة ترجمة نص بخصوصيات القرآن الكريم من حيث اللغة والتراكيب والإعجاز والذي يجعل القرآن مختلفا عما عرف في الآداب باللغة العربية حتى الشعر الجاهلي الذي أفنى بعض المستشرقين أعمارهم في الاعتناء به تحقيقا ودراسة وترجمة. وقد انبرى علماء المسلمين الذين يملكون ناصية اللغات الأجنبية إلى دراسة الترجمات المشهورة لمعاني القرآن ونقدها بناء على أسس علمية واستنتجوا موضوعيا سوء نية الكثير من المستشرقين في تعاملهم مع القرآن خصوصا مع المقدمات والملاحق التي يرفقونها بالنص المترجم والتي يملئونها بأرائهم السقيمة. ومن بين أخطائهم الشائعة في نقل معاني القرآن البحث عن معاني بعض كلمات القرآن في غير اللغة العربية كالسريانية من ذلك محاولاتهم إرجاع معنى كلمة قرآن إلى أصل سرياني هو كلمة برقانا



ومعناها الخلاص أو القراءة المقدسة والدرس وذلك ضمن السعي الحثيث
لربط القرآن بالمفاهيم المسيحية .

الترجمة علم له قواعده الدقيقة والمستشرقون اهتموا بالكثير من
انتاجات المسلمين المعرفية وفي محاولاتهم ترجمة معاني القرآن تداخلت القواعد
العلمية بالانحيازات الإيديولوجية والدينية ليسقط المستشرقون في أخطاء
يكشفها المتخصص الحيادي أهمها عدم الأمانة في البحث عن التوافق بين
اللغة الأصلية للقرآن واللغة المترجم إليها .

عمد المستشرقون إلى عدم احترام الخصوصية البلاغية لمعاني القرآن
لعجزهم عن فهمها ولم يتقيدوا بالترتيب التوقيفي للآيات والصور بل واقترح
بعضهم إعادة ترتيب الآيات والصور بناء على ما أسموه تاريخ القرآن وبيئته
وأسباب النزول وغيرها من المواضيع المتعلقة بالقرآن والموظفة بعيدا عن
مقاصدها .

لقد تابع علماء المسلمين ما يكتبه المستشرقون وكيف يمرر بعضهم
أفكارا خطيرة يقرأها من يطالع ترجماتهم لمعاني القرآن والتي تجد رواجاً بين
المسلمين غير الناطقين باللغة العربية رغم وجود مراكز إسلامية وعلماء
مسلمين قاموا بمهمة ترجمة معاني القرآن .

الباحثون الغربيون في الدراسات الإسلامية والإعلاميون الغربيون
يفضلون الترجمات الغربية . أشار عبد الراضي مُجَد : "أضيف إلى نصوص
الترجمات المشوهة للقرآن الكريم مقدمات تفسيرية وملاحق شارحة لمضمون

النص المترجم بل جدليات ضد أصالته وسخرية من محتواه ومحاولات للحط منه⁽¹⁵⁾ .

كما وضح أن التزوير يبدأ حتى من عنوان القرآن الذي يغير و يعوض بما ينفي عنه أية صلة بالله : فكتب المترجمون على الأغلفة عناوين من قبيل كتاب مُجَّد - قرآن مُجَّد - القرآن التركي - مبادئ السراسنة - الشرائع التركية - الكتاب المقدس التركي - تشريعات المسلمين⁽¹⁶⁾ .

ومن الأمثلة عن انتفاء العلمية والموضوعية في الكثير من الترجمات ما أشار إليه كتاب نشره مجمع الملك فهد المهتم بالقرآن دراسة وترجمة لمعانيه ورصدا لما يدور حوله من بحوث واجتهادات :

اقترح أحد المستشرقين منشور في " Journal of the American Oriental Society " بعنوان : " proposed emendations to the text of the koran " يتحدث فيها صاحبه عن 22 كلمة وعبارة صعبة في القرآن يزعم أنها أخطاء من قبل النساخ أو أخطاء كانت في مصادر أو روايات اقتبس منها أجزاء من القرآن ويقترح تصحيح هذه الأخطاء⁽¹⁷⁾ .

العلماء المسلمون بنوا ثروة كبيرة من الدراسات حول القرآن تناولوا تلك الكلمات والعبارات وحللوها : وفسرها المفسرون والنحاة قديما وحديثا لكن صاحب الاقتراح يستخف بهذه التحليلات والتفاسير ويستنتج على أساس الظن وسوء الفهم فيقع في أخطاء فاضحة⁽¹⁸⁾ .

هذه الملاحظات حول مسار تلقي غير المسلمين لنسخ ترجمها مستشرقون لمعاني القرآن وأراد بعضهم بحاكة القرآن والإصرار على أن ما يقدمونه هو ترجمة حرفية



بل إننا نجد ابن النغيلة قد تجرأ وهو في أعلى منصب سياسي في الأندلس الإسلامية على القول أنه قادر على نظم آيات القرآن شعرا وقد تصدى له ابن حزم الأندلسي ولم ينس له مسلمو الأندلس صنيعه وانتقموا من يوسف ابنه .

ترجمة القرآن في المنظومة المسيحية الغربية خضع لأهواء ومقاصد مغرضة يؤكدونها كون : أول ترجمة للقرآن الكريم باللغات الأوربية كانت باللاتينية وقد تمت بإيعاز وإشراف رئيس دير كلوني بجنوب فرنسا الراهب بطرس المبجل "pierre le vénérable" وكان ذلك سنة 1143م وعلى يد راهب انجليزي يدعى "روبرت الرتبني" Robert de RETINA وراهب ألماني يدعى هارمن HERMANN .

وجاءت الدوائر الدينية المسيحية هذه الترجمة باتخاذها من مخطوطاتها موقفا حازما وهو منعها من الظهور بعد أن اعتبرتها عاملا من شأنه أن يسهل التعريف بالإسلام وانتشار هذا الدين بدلا من أن تخدم الهدف الذي سعت إليه الكنيسة أصلا وهو محاربة الإسلام وظلت الترجمة المذكورة ضمن محفوظات الدير ولم تصدر إلا في 1543 أي بعد مئات من السنين على وضعها حين قبض لها الظهور في مدينة بال بسويسرا على يد صاحب مطبعة هو ثيودور بيبلياندر theodore BIBLIANDER⁽¹⁹⁾ .

ورغم النقائص المسجلة حول هذه الترجمة فإنها اعتمدت : لمدة طويلة أساسا للترجمات إلى عدد من اللغات الأوربية وبعد صدور طبعة من هذه الترجمة على يد العالم الايطالي باغانيني PAGANINI . أمر البابا بولس الثالث بإتلافها ولم تسمح الكنيسة بطبع ترجمة القرآن الكريم باللاتينية إلا في عهد البابا الكسندر السابع (1555-1567) وبعد ذلك أخذت الترجمات تتوالى بالعديد من اللغات ومنها العبرية .

المهدف من الترجمة كان واضحا في عقل بطرس المبجل الذي دافع عن

مسعاه ضد معارضيه بالإشارة حسب عقله التنصيري :

أن الجريمة التي ارتكبتها نُحْمَد لا يمكن تسميتها إلا هرطقة أو وثنية لذلك يجب العمل ضد ذلك ولكن اللاتينيون لا يعرفون إلا لغاتهم لذلك هم عاجزون على إدراك حجم الخطر المحدق بهم لذلك بحثت عن متخصصين في اللغة العربية باذلا المال والجهد كل ذلك ليتمكن المسيحيون من محاربة دين ذلك المسكين وحتى لا يكون هناك خطأ يلوث أفكارنا وقد جعلت لهم مساعدا أحد السراسين (يعني المسلمين بالتعبير التحقيري)⁽²⁰⁾ .

غرض المترجمين الأوائل كان واضحا وهو عرقلة انتشار الإسلام بين المسيحيين وذلك بتقديم صورة مشوهة عن القرآن وبياتحته للمنصرين كي يثثون سمومهم عنه من خلال الادعاء أنهم ينقلون ذلك عن القرآن نفسه. والملاحظ أن ارتباط نشر القرآن بالوسائل التكنولوجية بالبلدان المتقدمة أدى إلى أن تكون تاريخيا :

أول طبعة للنص الكامل للقرآن وبحروف عربية هي تلك التي قام بها القس الألماني "إبراهيم هينكلمان" Abraham HINCKELMANN في 1695 في المدينة الألمانية هامبورج. ومن طريف ما يروى أن رجال الدين في أوروبا حاربوا القرآن الكريم بإطلاق الشائعات التي تقول بأن من يترجمه أو يطبعه أو ينشره فإنه يموت فورا. اتصال المستشرقين الأوائل ورجال الدين المهتمين بالإسلام بالقرآن لم يدفعهم إلى قراءته و محاولة فهمه لأن حمولة الأفكار العدائية كانت ثقيلة :



يقول المستشرق "رودي باريت" المستشرق الألماني الذي قام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى الألمانية، وعمل أستاذاً للإسلاميات والساميات في جامعة بون، ثم في جامعة توبنجن: "حقيقةً، إنَّ العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق واسع. ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعاً ما كانت تصطدم بحكم سابق، يتمثل في أنَّ هذا الدِّين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير"⁽²¹⁾.

علماء الإسلام قدموا رؤيتهم العلمية لحركة ترجمة القرآن من المستشرقين وبينوا عوار تلك الحركة بوضوح :

ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الإفرنج في فهم القرآن كلها قاصرة عن أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر وهي إنما تؤدي بعض ما يفهمه المترجم له منهم أن كان يريد بيان ما يفهمه وأنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمّدوا تحريف كلمه عن مواضعه على انه قلما يكون فهمهم تاما صحيحا ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمنا بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما : قصور فهمه و قصور لغته وقد اعترف لي ولغيري بهذا⁽²²⁾.

رصد بعض الباحثين أهم أخطاء ترجمات القرآن في :

1- لجوء المستشرقين إلى الترجمة الحرفية للعبارات الاصطلاحية وهذه يستحيل ترجمتها من القرآن الكريم إلا بالمعنى .



2- إعطاء معنى واحد للكلمة في كل مكان بصرف النظر عن السياق والموضوع مع تجاهل المعاني الأخرى للكلمة .

3- نسبة المفردات العربية إلى جذور أجنبية قدر الاستطاعة وإعطاؤها معاني غير مألوفة .

4- استخدام مصطلحات نصرانية في الترجمة قدر الإمكان .

5- التحريف المباشر في المعنى .

6- إساءة الترجمة باستخدام معان غير صحيحة للمفردات والعبارات .

7- إعطاء معان خيالية وخاطئة نتيجة لعدم فهم اللغة العربية .

8- إدخال عبارات تأويلية وتفسيرية في نص الترجمة والأصل أنها تكون في الحاشية أو يحظر أنها ليست من أصل النص المترجم .

9- إدخال تعليقات وتفسيرات فاسدة في الحواشي مبنية على الإسرائيليات والروايات الموضوعية الموجودة في بعض كتب التفاسير .

10- عمد بعض المترجمين إلى الإضافة على النص لأصلي أو الحذف منه عند الترجمة

11- عمد بعض المترجمين إلى تبديل العبارة أو الكلمات في الأصل عند الترجمة .

12- قام بعض المترجمين بإعادة ترتيب القرآن الكريم بحسب نزول السور أي الترتيب الزمني للنزول وأدي هذا إلى تجزئة بعض السور إلى فقرات حسبما زعموه أنه يطابق السياق فيه المعاني وتلك محاولات لم يحالفها النجاح⁽²⁴⁾ .

ومن الملاحظات الهامة في إطار تتبع الألغام المبتوثة في ترجمات معاني القرآن أيضا أن : المترجمين وجدوا قدرا من الإسرائيليات والأخبار الموضوعية

في كتب التفاسير العربية للقرآن الكريم سردها بعض المفسرين من باب الأمانة العلمية دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التعليق عليها مما جعلها مرتعا للمترجمين وغيرهم ممن يبحثون عن جوانب نقص في الدين القويم⁽²⁵⁾.

وفي نفس السياق العلمي نبه علماء الإسلام أن القرآن عربي مبين وأن إعجازه اختار له الله أن يكون باللغة العربية والمستشرقون غرباء عن هذا الحقل ومن يتعلم اللغة العربية يعجز عن التواصل مع القرآن لأن إعجازه روعي أيضا يتطلب توافقا عقديا مع محتواه والإشكال يتعقد عندما يتخذ الدارسون للقرآن من خلال تلك الترجمات مصدرا للأساسيات والتحديات

عندما ينظر الباحث إلى تراجم القرآن الكريم إلى اللاتينية يلاحظ عدم قيامها على مبدأ البحث العلمي النزيه إما لسوء نية أصلاً وإما لجهل القائمين باللغة العربية وبلاغتها واشتقاقها ويؤخذ على هذه الترجمات استنباطها للعديد من المبادئ الإسلامية التي تخالف الشريعة الحقة والتي استنتجها الدارسون من هذه الترجمات الفاسدة ومنها كثرة التصرف في هذه الترجمات من الحذف والتغيير والتبديل والتقديم والتأخير طبقاً لهوى المترجمين وأحكامهم المسبقة ومنها تصيد القراءات الشاذة ومحاولة تفسيرها بحجج تتلائم وما جبلوا عليه من التهجم على مؤسس الإسلام والمسلمين ومنها أن جل هذه الترجمات قد أكدت دون سند علمي أن القرآن الكريم من وضع النبي وأصحابه وأنه يشوبه التناقض والنسخ والنقصان من حيث الأسلوب والبلاغة والأحكام (26).

والحقيقة العلمية التي يثبتها علماء المسلمين المتخصصين في الدراسات

اللغوية الألسنية هي :

الصعوبات الناجمة عن ترجمة القرآن بحرفيته إلى اللغات الأجنبية تتحدد في إعجازه اللفظي بحيث يستحيل معه ترجمته اللهم إلا إذا اقتصرنا هذه الترجمة على معناه وتفسيره كما أن الترجمة تفقد القرآن روعة نظمه وبلاغة أسلوبه وحلاوته التي تؤثر في النفوس أبلغ تأثير⁽²⁷⁾ .

القرآن موجه إلى كل العالمين من مختلف الخلفيات اللغوية والثقافية والعرفية والدينية والعلمية وبالتالي فيه ما يتجاوب مع مختلف مستويات الأرواح والعقول في التلقي والتفاعل واجتهد المسلمون في وضع علوم محاطة بنص القرآن للحفاظ على معناه مع غربة المسلمين عن لغته بفعل الفتوحات واجتهادها أيضا منهم لاستكناه أسرارها .

علوم القرآن : سياق الفهم الصحيح للقرآن :

اهتمام المسلمين بالقرآن حفظا وتلاوة وتجويدا وعلوما هو جزء من هويتهم وعمود انتمائهم، والمكتبة الإسلامية زاخرة بالمؤلفات التي درست نص القرآن حتى في مباحث غريبة بل وخطيرة بالمفهوم العقدي، ورغم ذلك القرآن صامد لم تتحرك فيه آية عما وضعها فيه رب العباد بل أن محاولات نشر نسخ محرفة من القرآن كان ينتبه إليها عامة الناس لأن صدورهم وسعت حروف القرآن وأذاهم أصبحت رادارا يكشف الزيغ والتحريف .

علوم القرآن حصنت عقول المسلمين من أي زيغ وفتحت أمام أرواحهم آفاقا واسعة للاجتهاد في هذا الكتاب المسطور ولكن أيضا في الكتاب المنظور مع الآيات الكثيرة الحاثئة على ذلك :



تعني عبارة علوم القرآن المباحث والدراسات التي كتبت حول القرآن الكريم وهي تتناول أربعة موضوعات أساسية : مصدر القرآن أو كيفية إنزاله وتلقي النبي له والثاني كتابة القرآن وجمعه ونسخه في المصاحف والثالث تلاوة القرآن وقراءاته والرابع تفسير القرآن وكيفية فهم آياته ويتألف كل موضوع من هذه الموضوعات من عدد من المباحث التي يتكون من مجموعها ما يعرف بعلوم القرآن ويتصل بعلوم القرآن أيضا المباحث المتعلقة بفضائل القرآن والدراسات التي تبحث في وجوه إعجازه⁽²⁸⁾ .

إن القرآن أنزل للناس كافة في مختلف الأزمنة لذلك : ترتبط نشأة علوم القرآن ببدء نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتلاوته على الناس وأمره أصحابه بكتابته وتطورت تلك النشأة مع تطور الحياة العلمية والثقافية للأمة وانتقلت من مرحلة الملاحظات المتفرقة إلى مرحلة البحث المنهجي المدون⁽²⁹⁾ .

لم ينزل القرآن على النبي المبلغ ليحفظه المسلمون بالمفهوم البسيط للكلمة بل ليحفظوه فهما لذلك أن : طريقة تلقي الصحابة للقرآن عن رسول الله ﷺ، تؤكد على التفهم للمعاني فقد قال عبد الله بن مسعود كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها يعني من العمل⁽³⁰⁾ .

وتوضيحا لهذه العملية الاستراتيجية الحاسمة في رحلة القرآن بين المسلمين علما وعملا يضيف الباحث :



وكان أبو عبد الرحمن السلمي وهو مقرئ أهل الكوفة (ت74هـ) في عصر التابعين يحدث عن الصحابة الذين علموه القرآن ويقول حدثني الذين كانوا يقرئوننا عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب أن رسول الله كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا وقال العلماء تكره قراءة القرآن بلا تدبر وقال الاجري والقليل من الدرس للقرآن مع الفكر فيه وتدبره أحب إلي من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكر فيه و ظاهر القرآن يدل على ذلك والسنة وقول أئمة المسلمين ونقل الاجري روايتين تدلان على ذلك⁽³¹⁾ .

هذا هو الوضع الطبيعي بين المسلمين وقرآنهم وما حدث ويحدث من هجران تدبره تدفع ثمنه أجيال وجدت نفسها في غربة عن مقاصده وعناصر القوة فيه الدافعة لتحقيق معاني الاستخلاف الحقيقية .

الدفاع عن القرآن لم يكن رد فعل ضد المحاولات المغرضة ولكنه كان جزءا طبيعيا من دراسته كما أشار إلى ذلك الشيخ الندوي الهندي والذي عرفت بلده وعصره محاولات لإثارة الغبش والشك بين المسلمين وكتابهم من خلال التأويلات البعيدة عن روح القرآن أو من خلال إنشاء مذاهب تلزم الإلتباع بمصادر ومراجع أخرى للمسلمين بعقائد جديدة وكتب مقدسة جديدة لقد شهدت الهند أيضا حملة تنصيرية شرسة رأسها التشكيك في الإسلام ومن فصول هذه الحملة المناظرة الشهيرة بين رحمة الله الهندي والقس فندر والتي أثمرت كتاب "إظهار الحق" .

يقول أبو الحسن الندوي : "أما القرآن الكريم الذي كان آخر الكتب المنزلة من الله ومصدقاً لها ومهيمناً عليها وعليه الاعتماد في هداية البشر



وربط الخلق بالخالق والدعوة إلى الله بعد البعثة المحمدية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فشأنه يختلف عن شأن جميع الكتب السماوية كل الاختلاف، فقد تكفل الله بحفظه وسلامته من كل تحريف وتبديل وزيادة ونقص فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : 41-42] وكذلك تكفل الله بسلامته من مسخ وعبث ومحو من الذاكرة وارتفاع عن صدور الناس أو تعرض لنكبة تقضي عليه أو تبديه كما وقع أكثر من مرة للتوراة فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] وهي الكفالة بحفظه وبقائه وانتشاره وازدهاره وبقائه متلوا ومدروسا ومفهوما وغير مهجور قد انقطع العمل به بتاتا أو تنوسي فكل هذا من معان ولوازم وأفاق مما تنطوي عليه كلمة الحفظ العربية البليغة⁽³²⁾.

يربط الندوي بين الحقيقة الدينية والاستنتاج المنطقي حتى يلزم خصوم الإسلام بالاعتراف بالحقائق الناصعة فيضيف : ولما قضى الله بقاء هذا الكتاب على أصالته ونقائه وبنصه وفصه كما نزل على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، سخر الله لهذا الغرض النفوس البشرية والدواعي الطبيعية والأسباب الخارجية والحوادث الكونية فكان لا يتحرك به لسان النبوة ولا يدخل في الأذن إلا ويتهالك المسلمون على تلقفه وحفظه⁽³³⁾.

وحتى لا يبقى كلام الندوي بعيدا عن أدلة الواقع يسارع في التوضيح : "وقد اتفقت كلمة المستشرقين وعلماء الغرب المحققين الذين لا



يؤمنون بطبيعة الحال بكون القرآن منزلا من الله ووحيا أوحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم، على صحة نقله وانتهائه بنصه إلى محمد ﷺ (34) .

من المواضيع المثيرة عند المستشرقين ما أسموه تاريخ القرآن وقد أحاطوا هذا الموضوع ببجبال من الشبهات لحجب إشعاعه على الناس ف : إدعاء غموضه (تاريخ القرآن) ويلاحظ قصور علم المستشرقين وقلة اطلاعهم على المصادر الإسلامية أو كتمانهم الحقائق العلمية الناصعة (35) .

وعن ادعائهم عدم صحة الروايات الواردة في الجمع يرد علماء المسلمين بما هو معلوم تاريخيا ويتنكر له المستشرقون، فالروايات الواردة في موضوع الجمع كثيرة فيها ما هو صحيح في اعلي درجات الصحة وفيها ما هو دون ذلك وفيها الضعيف الواهي والمنهج العلمي يقضي بالأخذ بالصحيح وترك الضعيف والواهي أو التوفيق بين الأخبار الصحيحة الثابتة . ولكن كثيرا من المستشرقين شككوا فيما هو صحيح ثابت دون ادني دليل علمي، وخلاصة موقف المستشرقين من روايات الجمع إنما هو المبالغة في الشك والافتراض وإنكار الحقائق الثابتة واعتماد الضعيف والشاذ (36) .

الباحث الموضوعي يجد الرد على هذه الشبهات ولكن المستشرقون هدفهم التشكيك وليس الحقيقة العلمية والتاريخية .

علماء المسلمين تتبعوا كل تفاصيل رحلة القرآن إلى قلوب المسلمين وتتبعوا كل ما قد يثير الشك لدى المرتبكين أو المغرضين ومن ذلك أن :

نصوص من الكتاب والسنة تبين أن تدوين القرآن كان بأمر من الرسول كما أنها تبين أن الرسول كان حريصا على تدوين كل ما ينزل عليه من



الوحي ولو كان بعض آية وهذا لا ينفي أن بعض الصحابة كانوا يدونون القرآن أو بعضاً منه تدوينا شخصيا خاصا بهم فالآثار الإسلامية واضحة وصريحة في أن التدوين وقع بأمر الرسول وعلمه ورقابته خلاف لما يدعيه بعض المستشرقين⁽³⁷⁾.

أما عن شبهة ضياع جزء من القرآن فإن الدارس للتاريخ الإسلامي يدرك أن :

شبهة ضياع جزء من القرآن هذا الزعم قديم يعود في أصله إلى الروافض الذين يزعمون أن القرآن تعرض للتحريف واستدلوا بروايات ساقطة وإخبار موضوعة ملفقة استعمل المستشرقون أغلبها⁽³⁸⁾.

اليوم مع كل وسائل التواصل وحروب اليقين ليس هناك بين كل فرق السنة وبين فرق الشيعة إلا قرآنا واحدا يتلى ويحفظ ورغم وجود أفكار عن مصاحف خاصة بالشيعة فإن دليل ذلك غير متداول .

القراءات : معركة أخرى للمستشرقين :

من المباحث التي كتب فيها بعض المستشرقين ويثيرها الطاعنون في الإسلام والقرآن مسألة القراءات وجهل أو تجاهل المستشرقين لبعض الحقائق المحيطة بعلاقة المسلمين بالقرآن، جعلهم يقعون في أخطاء علمية بادية بوضوح من ذلك :

لم يكن خط المصحف القديم سببا لنشأة القراءات أو وجودها كما حاول بعض المستشرقين ومن قلدهم أن يصوروا ذلك لأن تعلم القرآن وقراءته



كان يستند إلى التلقي الشفهي في عصر النبوة وما بعده فكان الاعتماد في نقل القرآن على حفظ المصاحف والكتب وكان تعدد وجوه القراءة معروفا في زمن النبي ﷺ قبل وجود المصاحف فكانت قراءة الصحابة متعددة بفضل رخصة الأحرف السبعة و إلى جانب ذلك كله فإن من القراءات ما كان مخالفًا لخط المصحف ولو كان الخط سببا لوجود القراءات لانهضت القراءات فيما يحتمله الخط . فلم يكن خط المصحف إذن سببا في وجود القراءات القرآنية أو اختلافها ولكن الخط كان سببا في حفظ الاختلاف الموجود أصلا لأن القراءة سنة متبعة وكان الخط حين عدت موافقته شرطا في قبول القراءة مقياسا يمنع ما لا يدخل في نطاقه مما صح من الروايات فالرسم لا ينشئ القراءة ولكنه يحكم عليها . ولو كان خط المصاحف هو السبب في نشأة القراءات كما يزعم هؤلاء لوجب قبول كل قراءة احتملها خط المصحف فمادامت القراءات هي اجتهاد القراء بزعمهم في قراءة المرسوم فانه لا فضل للواحدة منها على الأخرى⁽³⁹⁾ .

كما أن علماء الإسلام بينوا علميا أن القراءات ليست بابا لتعدد المصاحف أو اختلاف مقاصد القرآن :

اختلاف القراءات لا يبلغ بحال مبلغ التضاد أو التناقض وقد حصر ابن الجزري أنواع الاختلاف في ثلاثة أحوال وهي: اختلاف اللفظ والمعنى واحد واختلافهما جميعا مع جواز اجتماعهما في شيء واحد واختلافهما جميعا مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد⁽⁴⁰⁾ مصداقا لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ

عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82]



شاهد من أهلهم : النقد الداخلي للاستشراق :

الحيدة العلمية إذا التزم بها الباحث أوصلته إلى النتائج الموضوعية وبين المستشرقين من تحرر من قيود الانتماء الشوافي والتعصب وشهد بالحق الموضوعي في بعض المباحث "أبو الحسن الندوي" ينقل شهادات جمعها من مضانها ونشرها في زمن كان الاستعمار والتنصير والاستشراق يصدرن من مخبر واحد :

يقول "سير وليم موير" الذي عرف بتحامله على الإسلام وصاحب رسالته حتى اضطر مؤسس جامعة عليكرة الإسلامية إلى وضع كتابه الشهير في الرد على كتابه حياة مُجد يقول "موير" في نفس هذا الكتاب : "لم يعض على وفاة مُجد ربع قرن حتى نشأت منازعات عنيفة وقامت طوائف وقد ذهب عثمان ضحية هذه الفتن" (41) .

ولاتزال هذه الخلافات قائمة ولكن القرآن ظل كتاب هذه الطوائف الوحيد وأن اعتماد هذه الطوائف جميعا على هذا الكتاب تلاوة برهان ساطع على أن الكتاب الذي بين أيدينا اليوم هي الصحيفة التي أمر الخليفة المظلوم بجمعها وكتابتها فلعله هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصه محفوظا من التحريف طيلة ألف ومائتي سنة .

ويقول وهيري في تفسيره للقرآن أن القرآن أبعد الصحف القديمة بالإطلاق على الخلط والإلحاق وأكثرها صحة وأصاله ويقول "بأمر" مترجم القرآن المعروف إلى اللغة الانجليزية في كتابه مقدمة القرآن : لم يزل نص القرآن الذي رتبته عثمان هي الصحيفة المتلقاة بالقبول المعتمد عليها عند المسلمين و

يقول لين بول: أن أكبر ما يمتاز به القرآن أنه لم يتطرق شك إلى أصالته وأن كل حرف نقرأه اليوم نستطيع أن نثق بأنه لم يقبل أي تغيير منذ ثلاثة عشر قرناً⁽⁴²⁾

تتبع علماء المسلمين للاعترافات الصريحة أو الضمنية في كتابات المستشرقين ليس تسولاً للاقرار بنبوّة الرسول ﷺ ولا الاعتراف بالمصدرية الإلهية للقرآن ولكن ذلك يدخل ضمن معركة وشهد شاهد من أهلها .

يؤكد ما سبق ما ذكره مصطفى ماهر: أدين المستشرقون المتطرفون بفهم المستشرقين المنصفين حيث تكفل بالردّ على هذه المزاعم الكاذبة جملة من المستشرقين المنصفين لا سيما "السير وليام موير" في كتاب "حياة محمد": فكان ما تحدث فيه عن منزلة القرآن ودقّة وصوله سالماً، خير ردّ على التجنيّ والحقد الأعمى، واعتبر ذلك تهرباً عن البحث العلمي الرّصين⁽⁴³⁾

كما اعترف بعض المستشرقين بفداحة ما اقترفه زملائهم في حق النبي محمد ﷺ باعتباره مبلغ القرآن وخيانتهم للأمانة العلمية : نفوا ما افتراه الجاهلون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حالات الصرع المدعاة، لأن نوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام العطل ونفوا ادعائهم أنه لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابويّة فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه⁽⁴⁴⁾ .

يبدو واضحاً دركة السفاهة التي وصلت إليها عقول أمعنّت في الكذب والافتراء حتى أصبحت وصمة عار على من ينتسبون مثلهم الى نفس الحقل المعرفي ونظراً لفضاعة ولاعقلانية هاته التهم والشبهات فند



بعض المستشرقين هذه الادعاءات بالعقل وسفوها مبالغة بعض المستشرقين في اختلاق التهم :

أن واحدا من المستشرقين الذين عرضوا حياة مُحمَّد بشئ من الانصاف ذلك هو الكاتب الفرنسي اميل درمنجم ليذكر بعض هذا الذي كتب إخوانه في الدين فيقول لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هموة الخلاف وسوء الفهم بطبيعة الحال و ازدادت حدة. ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى اشد الخلاف فمن البيزنطيين من أوقروا الإسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم مئونة دراسته⁽⁴⁵⁾. وبمزيد من الحذر والحرص ينبه علماء المسلمين إلى أن هذا لا يعني التسليم بكل ما يقوله هؤلاء من ذلك ما نشره الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار تحت عنوان : ملاحظات على كتاب "المسيو درمانغام" المعنُون بحياة مُحمَّد⁽⁴⁶⁾. إذن بلغت لاعقلانية شبهات بعض المستشرقين حدا أصبح وبالا وعارا للمقامات العلمية التي يحتلونها والجامعات التي يعملون بها فتولى بعض العقلاء منهم مواجهة الذات والانتباه إلى العار الذي لحق بهم جراء خروجهم عن أدنى شروط البحوث العلمية .

يقول أحد المستشرقين : في العلوم الإنسانية بالذات يسود الخلاف الحاد حول المسائل المنهجية⁽⁴⁷⁾. ويدقق في التجربة الألمانية والدراسات حول القرآن باللغة الألمانية منذ القرن التاسع عشر فيقول : "كان القائمون بتلك الدراسات أساتذة جامعات أو مثقفين أو أمناء مكتبات ولكنهم لم يكونوا بالطبع مسلمين أو عربا كما أن معظمهم لم يكونوا مسيحيين أو يهودا

بالمعنى العقدي وإنما كانوا ذلك بمعنى أن خلفيتهم الثقافية كانت يهودية أو مسيحية وكان عددهم قليلا جدا كما أن قراءهم في أوروبا في القرن التاسع عشر لم يكونوا بالطبع مسلمين أو عربا لقد كان قراء تلك الكتب والأبحاث يمثلون فئة قليلة من أصحاب الاهتمام العام من الألمان والنمساويين والسويسريين أي من الناطقين بالألمانية وكان اهتمامهم ليس منصبا على الاستلام فحسب وإنما شمل أيضا الهندوسية والبوذية وكذلك عقائد الإسكيمو والهنود الحمر⁽⁴⁸⁾.

ولفهم أكثر لمسارات الدراسات الاستشراقية يوضح أيضا أن :

الدراسات القرآنية كانت لها علاقة قوية بعلم اللاهوت المسيحي ففي القرن التاسع عشر ظهرت الدراسات النقدية حول الكتاب المقدس وفي كثير من القضايا انطلق الباحثون الأوروبيون ومن بينهم الألمان من أحكام سابقة عديدة وحيثما كان من الأفضل محاولة الوصول إلى فهم أكثر عمقا كانوا كثيرا ما ينتقدون على نحو سطحي وإضافة إلى ذلك لم تكن معرفتهم باللغة العربية معرفة كافية دائما⁽⁴⁹⁾.

خيانة المنهج :

المتابعة المعرفية الدقيقة تسمح باستخراج التجاوزات العلمية من حيث المنهج ومن حيث التعامل مع المصادر . فقد نبه الباحثون المسلمون إلى الخطأ المنهجي الذي يقع فيه المستشرقون في مسألة مقارنة القرآن بالكتب الأخرى حيث :

لا يجوز مقابلة هذا الأسلوب بأسلوب القصة في التوراة لاختلاف الغرض فيهما. ففي التوراة عدا أسفار الأنبياء والأمثال والأناشيد الروحية



حوادث تاريخية منظمة تحري الأخبار مجراها الواضح العادي أما القرآن فإنه يشير إلى الحوادث التاريخية، بوثبات أو بحملات روحية خطابية لا يقصد بها تسلسل الخبر، بل يقصد بها إلى التذكير والتهويل . ولذلك ترد مرارا بحسب ما يقتضيه الكلام، وكثيرا ما تروى عن سبيل الإشارة والتلميح، والنسق الخطابي يقتضي التكرير كما هو معروف⁽⁵⁰⁾ .

ومن الأخطاء المنهجية الصريحة للمستشرقين ما ذكرها عبد الله دراز :
ينبغي أن تسبق دراسة مصدر أي كتاب دراسة محتواه أما القرآن فان دراسة مصدره تستوجب مخالفة هذه القاعدة لأن فكرة مصدره الإلهي ليست فقط جزءا من دعوته وإنما هي الجزء الأساسي منها ومن أول القرآن إلى آخره نراه يتحدث إلى الرسول أو يتحدث عنه ولا يتركه أبدا يعبر عن فكره الشخصي وفي كل جزء منه يتكلم الله تبارك وتعالى ليصدر أمرا أو ليشرع قانونا ليخير أو لينذر⁽⁵¹⁾ .

وفصل عبد الله دراز في تتبعه : والواقع أن بحوثا ودراسات كثيرة قد سلكت هذا السبيل في الماضي ومما يشرف القرآن والسنة أنهما سجلا بكل عناية وإنصاف جميع الآراء التي أبداهما معاصرو النبي ﷺ لتعليل هذه الظاهرة⁽⁵²⁾ . وتبريرها وهي تشتمل على افتراضات لا تعتمد على الحلول الممكنة والمعقولة وحدها وإنما تلجأ إلى كل مستحيل وغير معقول لا يتوانى أي عقل ساخر عن التعبير عنه للحط من شأن أي جديد مهما كانت جديته وأهميته بالنسبة للبشرية وهذا يجعلنا نقرر أن البحوث الحديثة في هذا



المجال لا تعدو أن تكون زيادة أو تكرارا لنفس الكلام القديم وإن اختلفت في الشكل والأسلوب⁽⁵³⁾ .

التوازن والاستقامة التي طبعت ردود بعض علماء المسلمين تضاف إلى الأصل المقدس وهو القرآن الذي أحصى شبهات المشككين وأبطل مفعولها وزادت السنة بطمأننة العقول المرتبكة فهي سنة كونية في مجابهة الباطل للحق والتناول عليه عندما تنقلب الموازين .

تفكيك الشبهات :

لاحظ الباحثون المسلمون أن دراسات المستشرقين للقرآن تتم في معظم الأحيان في شكل مستقل داخل إطار الدراسات الإسلامية أو في شكل مقارن داخل إطار مقارنة الأديان بخاصة مقارنة الكتب المقدسة في الأديان⁽⁵⁴⁾ .

من الموضوعات : دراسة القرآن كمصدر للدين الإسلامي ومصدر للشريعة الإسلامية ومصدر للعبادات والمعاملات في الإسلام ومصدر للأخلاق في الإسلام فقد دأب المستشرقون على عمليات تفكيك لأجزاء القرآن وفق خطط يضعونها مسبقا :

موضوع تأصيل لمسميات وتقسيمات القرآن مثل مصطلحات القرآن والقراءات وظاهرة التكرار في القرآن والموضوعات اللغوية والأسلوبية والبلاغة والإعجاز القرآني ولغة القرآن الكريم والأسلوب القرآني وغريب



القرآن أو ما يسمى الألفاظ الأجنبية في القرآن أو الدخيل السامي وغير السامي في القرآن والدراسات حول معاجم القرآن وأيضاً قصص الأنبياء ومقارنتها بما يقابلها في أسفار العهد القديم والعهد الجديد والتصور القرآني لليهودية والنصرانية والنقد القرآني لهما.⁽⁵⁵⁾

وكما سبقت الإشارة فإن المستشرقين ناقشوا قضايا ترجمة معاني القرآن وصعوبات الترجمة وقام بعضهم بعمل ترجمات لها إلى اللغات الأوروبية واهتموا أيضاً بدور القرآن في حياة المسلمين وتأثيره في بناء الحضارة الإسلامية والسلوك الإسلامي .

يحدد محمد خليفة الاتجاهات التي غلبت على هذه المحاور في :

- 1- اتجاه دراسة القرآن في ضوء علم نقد الكتاب المقدس .
- 2- اتجاه دراسة القرآن في ضوء المنهج التنصيري .
- 3- اتجاه دراسة القرآن في ضوء المنهج المقارن .
- 4- الاتجاه المرتبط بترجمات معاني القرآن الكريم⁽⁵⁶⁾ .

ويؤكد الباحث ما يتفق عليه كل باحث موضوعي من أن اتجاهات هذه الدراسات مرتبطة بالخلفية المركزية التي ينطلق منها المستشرق وعموماً يمكن تصنيف المستشرقين من هذه المقاربة إلى فريقين :

يتكون الأول من رجال الدين وعلماء دين تقليديين منتمين إلى الكنيسة الغربية على اختلاف مذاهبها ورجال دين يهود ينتمون إلى الحركات والمذاهب الدينية اليهودية المنتشرة في الغرب وهذا الفريق من

المستشرقين متدين وملتزم دينيا ودراسته للإسلام وللقرآن دراسة مرتبطة بأهداف ومصالح ديانتهم اليهودية كانت أو نصرانية ويغلب عليها الطابع الدفاعي الجدلي ضد الإسلام والقرآن الكريم .

الفريق الثاني يضم مجموعة من العلماء العلمانيين المنتمين إلى حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية في الجامعات والمؤسسات ومراكز البحوث الغربية والذين طبقوا على القرآن المناهج العلمية المرتبطة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والأنثروبولوجية والنفسية والفلسفية بالإضافة إلى ما تم تطويره من علوم دين مستقلة مثل علم مقارنة الأديان وعلم تاريخ الأديان وعلم الظاهرة الدينية لتكون مجموعة جديدة من علوم الدين إلى جانب علم الاجتماع الديني وعلم أنثروبولوجيا الدين وتاريخ الدين وجغرافيا الدين وعلم النفس الديني وفلسفة الدين علاوة على الاهتمام بدراسة الأدب الديني والفنون الدينية والأخلاق الدينية أو بمعنى آخر دراسة الدين في علاقته بالأدب والفن والأخلاق⁽⁵⁷⁾ .

ورغم اتساع فروع هذه المقاربات إلا أن الاستشراق عبر التاريخ حمل معه عيبا علميا كبيرا لا ينتبه إليه بعض الباحثين المنبهرين بالكتابات المشهورة يبين الباحث ذلك مع العلم بأن بعض الدارسين المسلمين -وغيرهم- انتبه إلى هذا العائق المعرفي بل والأخلاقي الذي ينزع عن المستشرقين صفة المتخصصين في الإسلام : إهمال الدراسات القرآنية عند المستشرقين أدى بالضرورة إلى عدم فهم القرآن الكريم نتيجة عدم التعمق في دراسته فضلا عن إهمال الدرس القرآني والتوقف في دراسة القرآن عند ترجمة معانيه إلى اللغات الأوروبية دون التعمق في مضامينه ومفاهيمه وغلبة نقد القرآن الكريم



في الدراسات الاستشراقية أدت إلى غياب الفهم وقد عكس هذا خطأ منهجيا استشراقيا وهو أن النقد يتطلب فهم الموضوع المنقود وهذا لم يحدث في معظم الدراسات الاستشراقية حول القرآن حيث سيطر القصد إلى النقد على محاولة الفهم السقوط في فهم القرآن أدى إلى السقوط في فهم الإسلام خصوصا مع رفض الوحي والبحث عن مصدر للقرآن في اليهودية والنصرانية وهناك من اهتموا بالدرس القرآني وتعمقوا فيه فأنتهى بهم الأمر إلى اتخاذ موقف معتدل من القرآن لا يخلو من الانبهار وبعضهم أسلم .

هذه الحفريات العميقة لأسس الاستشراق تسمح بإبطال مفعول شبهاته التي غزت الدراسات حول الإسلام والتي غوت بعض الباحثين فانساقوا وراءهم .

عبد الصبور شاهين نبه أيضا بدقة الباحث أن من يتصدى للرد على المستشرقين عليه أولا أن يتسلح بالمعرفة العميقة لتراثه وتاريخه ويعطي مثالا على أهمية ذلك في رده على شبهات المستشرقين حول أخطاء محتملة في القرآن واختلاف في نسخ القرآن ومخطوطاته حيث يبين معلومة مفصلية : كان بعض الصحابة يضيفون في هامش صحفهم وخلال النص بعض التفسيرات التي تساعد على تفهم النص وبخاصة إذا كان من الجمل المقحمة ما يعد أثرا عن النبي ﷺ وتفسيرا وقد كان الصحابة يميزون في نسخهم بين ما هو من النص وما هو من تفسيره وبيانه فأما حين انحدر الزمن بالناس فقد اختلط الأمر على بعضهم فاعتبروا المصحف كله نصا وظنوا أن ما كان من البيان هو آيات من القرآن⁽⁵⁹⁾ .



يشير العالم أيضا إلى الاحتيال المنهجي المعرفي الذي دأب عليه المستشرقون متحدين أبجديات المنطق والعلم : لم يعجب مسلك المسلمين جمهور المستشرقين الذين سلكوا طريقا آخر بأن يجمعوا الآراء والظنون والأوهام والتصورات بأجمعها ليستنتجوا بالفحص والاستكشاف ما كان مطابقا للمكان والزمان وظروف الأحوال معتبرين المتن دون الإسناد (كما أراد آرثر جفري في مقدمة كتاب المصاحف) وإذا صح أن يأخذ العلماء بهذا المنهج في مجال لم تتناوله محاولات السابقين فبقي مجهولا غامضا فانه لا يصح فيما انتهى السابقون من تمحيصه ونقده كلمة كلمة، حرفا حرفا، على الأساس الذي أنبنا عنه وبعبارة أخرى إذا صح هذا المنهج في تحقيق نصوص الكتب المقدسة السابقة على القرآن فلأن هذه الكتب وما لابس وضعها من ظروف وما ولاها من محاولات الإصلاح كل ذلك يدعو إلى الريية والشك وهو شك لم يخامر عقول السابقين من أجيال اليهودية أو المسيحية⁽⁶⁰⁾.

يضيف عبد الصبور شاهين مذكرا باليديهيات التي يتنكر لها المستشرقون وينساها بعض الباحثين المسلمين وهي أنه : بالنسبة إلى القرآن فالأمر مختلف تماما فكل ما يثير شكا أو يهيئ احتمالا تناوله الأئمة والعلماء بمنهج صارم بلغ الغاية في شموله وبلغوا الغاية في تطبيقه سواء في ذلك نقد الأسانيد ونقد المتن أن الشك المنهجي لا محل له في قضية تم قياسها ونقدها بأدق دروب الشك المنهجي وهذه نقطة الانفصال بيننا وبين المستشرقين الذين كتبوا عن تاريخ القرآن ابتداء من نولدكه مؤلف كتاب "تاريخ القرآن" المنشور عام 1860 ومن جاء بعده ليكمل منهجه⁽⁶¹⁾.



خصوصيات القرآن والوحي كانا مختلفتة عما عهدته المستشرقون ولذلك كان عملهم في الدراسات حول القرآن قليلة وضعيفة ومليئة بالمغالطات الصريحة وحتى بعض المستشرقين الذين تناولوا بعض مباحث الفكر الإسلامي غير القرآن وما يحيط به مباشرة، سرعان ما يسقطون في الجهل والمكابرة إذا تقاطعت تلك المباحث مع ما يتعلق بالقرآن . يوضح التهامي نقرة ذلك : نستخلص أنهم لا يفهمون حقيقة الوحي والنبوة ومن لم يعرف العلاقة التي تربط بينهما أو حاول أن يطبق مقاييس العلوم التجريبية أو النظرية عليهما فقد ضل سواء السبيل. ومنشأ الخلاف بين المؤمنين بالرسالات السماوية وغير المؤمنين بها ترجع أساسا إلى مفهوم الوحي عندهم⁽⁶²⁾ .

ويوضح الباحث فكرته بمثال لشخصية استشراقية معروفة وهو غوستاف لوبون وكتابه عن حضارة العرب : أخطر ما فيه إنصافه للحضارة العربية الإسلامية التي دافع عنها وأعجب بها وبين مالها من أثر في الحضارة الغربية فينخدع القارئ بمظهر الإنصاف حتى تصدمه بعض أقواله في القرآن وفي الرسول وفي الشريعة الإسلامية فيحس بالتحامل والتجافي عن الموضوعية⁽⁶³⁾ .

وكان لوبون -الذي يقدمه بعض المسلمين كمستشرق منصف - يدافع عن فكرة أن الرسول محمد ﷺ هو مصدر القرآن الحديث معا .

هذه الفرية تصدى لها علماء المسلمين بأدلة عقلية وأدلة نقلية ومن تلك الردود:



إذا كان القرآن والحديث مصدرهما واحدا وهو مُحَمَّد ﷺ فبِم نفسر هذا الفرق الكبير والبون الشاسع بينهما في أسلوب العرض وطريقة الأداء ومنهج التعبير⁽⁶⁴⁾ . ما الذي كان يصد الرسول عن نسبة شرف القرآن العظيم إليه لو كان من إنشائه وتأليفه⁽⁶⁵⁾ .

ويضيف الباحث ردا آخر : و لا أدل على أن الوحي القرآني خارج عن الذات الحمديّة من مخالفة القرآن في عدة مواطن لرأيه الشخصي ولطبعه الخاص..

الآية 67 والآية 68 من سورة الأنفال : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثْخَفَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٦٧)
لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٦٨)
والآية 43 من سورة التوبة : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴾^(٤٣)

كما أن البحث عن أصل للقرآن في اليهودية والمسيحية بحث تبطله الحقائق التاريخية : أن ما يدعيه المستشرقون من إفادة الرسول من حاشيته اليهودية والمسيحية الذين أسلموا وكانوا في صحبته هو محض افتراض لأن إسلامهم حجة قائمة على صدق ما جاء به الوحي الإلهي ولو تبين لهم أنه كان يتلمذ لهم في خفاء ليتلقى عنهم ما كان يدعو إليه لانفضوا من حوله ولعادوا إلى دينهم ولم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة في الدعوة إلى الإسلام .



الكتب والمواقع الخاصة بالكتب بالإضافة إلى مواقع على مختلف منصات التواصل الاجتماعي تلاحق الشبهات وتنظمها وفق ملفات كما تضع الردود عليها في متناول الباحث عن الحقيقة واليقين⁽⁶⁶⁾.

- نماذج من تشريح العمل الاستشراقي حول القرآن :

من أيجديات البحث الموضوعي أن من يتصدى للرد على المستشرقين لابد أن يقرأ لهم في مصادرهم لذلك : لا يتصور باحث موضوعي أكاديمي أن ينتقد الاستشراق دون الإلمام بلغاته أو بإحدى لغاته الرئيسية⁽⁶⁷⁾. كما أن التحليل العلمي والموضوعي لما أنتجه العقل المسلم ردا على المستشرقين يقتضي سرها وتقسيمها : يمكن تقسيم مواقف العلماء المسلمين من الشبهات إلى خمسة أنواع كما صنفها محمد البيانوني :

- 1- موقف العلم بها وبأسبابها ودوافعها والرد العلمي عليها .
- 2- موقف الغفلة عنها وعن أسبابها أو التساهل معها حتى شاعت في صفوف كثير من المسلمين .
- 3- موقف التأثر بها وتصديقها والدفاع عنها .
- 4- موقف الرد عليها ردا عاطفيا مجردا لا يقوى على دفعها .
- 5- موقف الدفاع الضعيف المنطلق من مركب النقص الذي أصاب كثيرا من شباب المسلمين في العصر الحديث⁽⁶⁸⁾ .

ويمكن إيجاز مراحل التعامل مع التراث الاستشراقي بناء على ما كتبه المهتمون :

انطلق مفهوم نقد الاستشراق في بدايات النهضة العربية عندما لاحظ المفكرون العرب والمسلمون دخول عنصر الاستشراق بقوة في دراسة التراث العربي الإسلامي فكان الانبهار بهذه الجهود العلمية التي يخدم بها المستشرقون تراثاً غير تراثهم وكاد الإعجاب من قبل المفكرين والمثقفين العرب والمسلمين يطغى على الإسهامات الأولى في انطلاقة نقد الاستشراق حتى قيل أن المستشرقين قد فهموا الإسلام أكثر من فهم أهله له . ومع الحركات الإحيائية التي عمت العالم جرت مراجعات لإسهامات المستشرقين بشكل هجومي وتعميمي على كل إسهامات المستشرقين وتم ربطها بالاستعمار والتنصير ودخل في النقد التعميمي للاستشراق هذا مفكرون وعلماء بعضهم لا يعلم عن الاستشراق إلا ما جاء به من سلبات مصادر ين على الإيجائيات التي خدم بها الاستشراق التراث أو التهوين منها⁽⁶⁹⁾ .

وبتراكم المواقف والتجارب البحثية اتضح أن أمام الموقف المنبهر القابل لكل ما يقوله المستشرقون والموقف الرافض لكل إسهام للمستشرقين هناك :

الموقف الثالث الذي راعى النظرة الوسطية فاخذ وترك من منطلق أن كلا يؤخذ من كلامه ويرد إلا من عصم الله من الأنبياء والرسل⁽⁷⁰⁾ .
هي نظرة العلماء المهتمين بالاستشراق ويسمونها أحد الباحثين :
"النظرة النقدية الهادئة المعتدلة للاستشراق واتجاهاته"⁽⁷¹⁾ .

علماء المسلمين بعد السير والتقسيم لشبهات المستشرقين التي دسوها في دراساتهم -التي تحمل بعض الحقيقة الموضوعية -لاحظوا أن بعض الشبهات سبقهم إليها كفار قريش واليهود والمسيحيين وأضاف إلى ذلك



الباحث مُجَّد داوود ملاحظة غاية في الدقة والعمق : أكثر المطاعن التي توجه للقرآن اليوم مأخوذة من هذه الكتب السابق ذكرها :

- الرد على ابن الراوندي الملحد للجاحظ
- كتاب مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري
- كتاب التمهيد وإعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني
- كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن.
- كتاب : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه لعباس محمود العقاد
- كتاب شبهات حول الإسلام : مُجَّد قطب⁽⁷²⁾ .

ويضيف إلى ملاحظته تلك ما يعطيها الوجهة أكثر : غاية ما في الأمر أنهم نقلوا الشبهة واغفلوا الرد عليها مع المبالغة والتنويع في عرض الشبهة حتى تتعدد الشبهة الواحدة في عشرات الصياغات فيهيأ لك أنك أمام عشرات الشبهات وليس أمام شبهة واحدة بل زادوا فوق إثارة الشبهات والافتراءات كيل التهم للقرآن ولنبي القرآن سيدنا مُجَّد وللمسلمين وبطبيعة الحال فان التهم والشتائم ليست شبهات والأعراض عنها خير دواء لها⁽⁷³⁾ .

وضمن مشروع موسوعة القرآن في إطار مشروع بيان الإسلام الذي استخدم منصات الاتصال الجديد في ملاحقة الشبهات وعرض ردود العلماء . جاءت المحاور التالية : كانت الحاجة ماسة إلى موسوعة القرآن الكريم في مواجهة الشبهات ضمن مشروع بيان الإسلام والرد على الافتراءات والشبهات وجاءت النتائج كالتالي :

المجلد الأول : الجزء الأول : الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها .



المجلد الثاني : الجزء الثاني : شبهات حول توهم من أخطاء لغوية في القرآن .
المجلد السابع : الجزء الحادي عشر : شبهات حول سلامة القرآن وتمامه .
الجزء الثاني عشر : شبهات حول عصمة القرآن و كماله ⁽⁷⁴⁾ .

وتم التطرق في الموسوعة أيضا إلى محور أساسي يتعلق بالحوار مع الآخر والذي يعد الاستشراق والرد عليه جانبا منه وجاء تحت عنوان : "قواعد المنهج القرآني وضوابطه في الحوار مع الآخرين" :

- 1-رفض الدعاوي الخالية من الدليل وطرح الاتهامات المفتقدة إلى برهان .
- 2-طرح الدعاوي القائمة على الظن والوهم .
- 3-المناقشة العقلية التي تعتمد على قواعد العقل وبديهياته ومسلماته .
- 4-الجمع بين العقل والنقل في الرد .
- 5-الاستدلال بالمذهب الكلامي الصحيح .
- 6-ضرب الأمثال في أثناء الرد لتوضيح الفكرة وتقريبها وإقناع المخاطب .
- 7-نقض الدعوى جملة وتفصيلا .
- 8-عدم الاكتفاء بنفي الادعاء دون الاستدلال
- 9-استعمال البلاغة في الرد والإيجاز في الجواب عن شبه الخصوم .
- 10- دعوة الخصم إلى التركيز في القضية محل النزاع والتأمل في حقيقة الأمر وترك التقليد والهوى .
- 11- الدعوة إلى تدبر القرآن والنظر في معانيه .
- 12-قراءة التاريخ والواقع العملي .
- 13- بيان الحكم والمصالح والمقاصد من الأوامر والأحكام والتشريعات الإلهية .



لا يمكن إلا مباركة العمل العلمي المتواصل الذي يقوم به باحثون مسلمون حول إنتاج المستشرقين حول القرآن كل ذلك ضمن سنن الله في التدافع بين الخير والشر .

من الجهود في الذود عن القرآن وصدد الهجوم عليه والتنبيه إلى مغالطات المستشرقين ما قام به الدكتور "محمد حسين علي الصّغير" في عمله وشرح خطواته :

- 1- حاولت الفهرسة تصنيف أغلب الأبواب والموضوعات والدراسات والبحوث والمؤلفات والتحقيقات والتراجم والتعقيبات في الموضوع والإشارة إلى زمان ومكان طبعها ونشرها قدر الإمكان .
- 2- احتجت إلى ترجمة بعض النصوص، من الإنكليزية .
- 3- احتجت إلى الاستعانة ببعض الأساتيد في الألمانية .
- 4- احتجت إلى الاستعانة ببعض الأساتيد في عملية الإحصاء استيعابا واستقصاء، لئلا يكون النقص في البحث كبيرا والهوة واسعة.
- 5- كانت المراجع للموضوع ما كتب عن المستشرقين، وما كتبه المستشرقون أنفسهم .
- 6- ما كتب عن المستشرقين كان دليلا هاديا إلى اكتشاف المجهول، واستقراء ترجمة الجهود، وإضافة قائمة بمؤلفات لم يحصل عليها ولم يطلع على أسرارها .
- 7- ما كتبه المستشرقون في موضوع القرآن كان مادة البحث الأولى التي اعتمداها في النصوص والتقييم والنقد .



8- من خلال هاتين الحصيلتين سلطت الأضواء على كوامن البحث في مصادره القيمة ومعالمه المتشعبة. وكان ذلك بفضل جمع ما تناثر هنا وهناك ولم يشمل وشعته من صروف الشتات والتمزق، فعاد مجتمعنا في بحث ومتداول في كتاب .

9- من خلال استقراء الجهود الاستشراقية في الدراسات القرآنية وجدنا أهم أعمالهم تدور حول الموضوعات التالية بحسب أهميتها عندهم ، أو بحسب ما أنتجوه فيها :

1- تاريخ القرآن الكريم وكل ما يتعلق بأسباب نزوله وتاريخ سوره مكيه ومدنيه وقراءاته ولهجاته وتدوينه وكتابه وما دار في هذا الفلك من رأي أو نظرية أو فكرة .

2 ترجمة القرآن إلى مختلف اللغات العالمية والألسن الحية ترجمة حرفية أو تفسيرية أو لغوية جزئية كانت أو كلية .

3- نشر ما كتب عن القرآن وما ألف فيه وتحقيق النصوص القديمة في آثاره والتدوين والفهرسة بمختلف الأصناف .

4- البحوث العامة والدراسات المتنوعة التي تنشق عن القرآن في علومه وفنونه وبلاغته ومسايرته للحياة في الفن والفلسفة والاجتماع⁽⁷⁶⁾ .

بعد عملية الرصد قام الباحث بخطوة أخرى شرحها في : تقويم نقدي لأشهر الجهود الاستشراقية في الدراسات القرآنية تاريخيا وتدوينيا وتفسيريا وموضوعيا كشفنا فيه طبيعة الفهم الاستشراقي للقرآن وتوثيق القرآن عند المستشرقين من ينابيعه الأولى .



وترجم الباحث جهوده في عمل وصفي تحليلي اعتمادا على قواعد البحث العلمي بشقيه الكمي والكيفي حيث يضيف : "صنفنا معجما إحصائيا بأبرز الدراسات الاستشرافية للقرآن الكريم وبوبنا ذلك أبجديا"⁽⁷⁷⁾.

وما فعله الباحث هو صدى لجهود العقل المسلم في الدفاع عن حقهم وواجبهم في حماية مقدساتهم مع اليقين أن الذي أنزل القرآن تكفل بحمايته وما يفعله المسلمون هو تأكيدا لذلك .

تجربة أخرى بنفس المقاصد قام بها باحث آخر حيث قدم دراسة تحليلية نقدية لأراء المستشرقين حول القرآن متبعا في ذلك فيها خطوات أحصت شبهات المستشرقين ومن ثمة صنفها كالتالي :

- 1-فصل حول شبهات المستشرقين حول مصادر القرآن الكريم .
- 2-فصل حول شبهات متعلقة بنص القرآن الكريم .
- 3-فصل حول شبهات متعلقة بجمع القرآن الكريم و شبههم حوله.
- 4-فصل حول شبهات متعلقة بشكل القرآن الكريم و مضمونه و شبههم حوله
- 5-فصل حول شبهات متعلقة بالقراءات القرآنية وشبه المستشرقين حولها.
- 6-فصل حول شبهات متعلقة بالأسلوب القرآني وشبه المستشرقين حوله
- 7-فصل حول شبهات متعلقة بإعجاز القرآن الكريم وشبهات المستشرقين عليه⁽⁷⁸⁾ .



لقد جمع عمل الباحث بين التحليل والنقد وبين المقاربة العلمية والإلزام الديني وهذا منطقي جدا إذ الإسلام جاء بقواعد وأصول موافقة للعقل والفطرة وإذا كان المشككون يصلون بمعاولهم إلى أسس الدين ولم تقنعهم حجج الدين العقلية والفطرية فعليهم احترام تلك الأسس لأن الهدم أسهل عملية لمن يجافي العقل والمنطق ويجلب عقله بمرض السفسطة .

من الشبهات التي يتوقف عندها الباحث شبهة أن : الإسلام دعا إلى الوحدانية بتأثير الوسط الوثني الذي نشأ فيه الإسلام⁽⁷⁹⁾ .

والرد المنطقي العقلي من الباحث جاء كالتالي : "دعوة المصطفى ﷺ للوحدانية لم يكن بتأثير الوسط الوثني كما زعم المستشرقون بل هي صدى للدعوة الأولى دعوة إبراهيم عليه السلام لأن أصلهما واحد والقرآن الكريم مليء بالآيات القرآنية الداعية لوحي الله"⁽⁸⁰⁾ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : 120] .

رد العلماء أيضا على شبهة الأصل الوثني للقرآن الذي أراد المستشرقون تثبيته اعتمادا على آراء ملفقة لا تستقيم في الفهم المنطقي كالتقارب الموجود بين الشعر الجاهلي وبعض الآيات القرآنية كما أن بعضهم أراد تلفيق شبهة مصدر القرآن في الحنفية الذين عرفتهم شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام اعتمادا على ابتعاد الحنفية عن عبادة الأصنام ومناجاتهم لإله واحد وإيمانهم بالوعد والوعيد ودفاعهم عن الفضائل الأخلاقية وأراد المستشرقون إغالا في سفاهة شبهاتهم الربط بين القرآن والصابئة التي تشابهت بعض معتقداتهم وشرائعهم بما جاء به الإسلام كالصلاة وارتباط المواسم



الدينية بالقمر والحج ولم يتأخروا في البحث عن أصول للقرآن في الزرادشتية والبراهمية الهندية واليهودية والمسيحية .

تناول علماء المسلمين هذه الشبهات وبينوا سفاهتها عقليا وابتعادها عن المنطق والعلم وبينوا خطأ المستشرقين الذين أرادوا نفي المصدر الإلهي للقرآن بأية طريقة وإن كان بالتلفيق الفاضح .

علماء المسلمين بينوا أن النبي إبراهيم عليه السلام الذي بنى الكعبة مع ابنه إسماعيل جاء بالتوحيد وورث العقيدة التوحيدية لأبنائه، وبالتالي التوحيد هو الأصل والثنية هي الطارئ ووجود بقية معتقدات توحيدية أمر منطقي .

ونفس الشيء بالنسبة للحنفاء أبناء نفس البيئة فهم يبحثون عن الأمان الروحي بعيدا عما يرونه من انحرافات عقدية وأخلاقية في المجتمع الجاهلي وأثناء بحثهم يطلعون على كتب وآثار الآخرين ويهفون السمع إلى الأخبار التي تؤرخ للإنسانية والتي لم تخل مراحلها المختلفة من نداء التوحيد من نبي أو رسول حي أو بقايا نبوة أو رسالة تعيش بين ظلام الجاهلية، والدارس للتاريخ الديني لشبه الجزيرة العربية يكتشف ما يريد المستشرقون إغفاله عن الأحناف وهو :

ليس هناك كتاب معين يتبعون أحكامه كما ان تصرفاتهم يغلب عليها الطابع الخلقي أكثر من الطابع الديني وقوم هذه عقائدهم المضطربة لا يمكن أن تكون إحكامهم وتصرفاتهم من المصادر الرئيسية للقرآن الكريم الذي يحتوي على تعاليم وأحكام واضحة جلية لا لبس ولا غموض شرعت لتنظيم الانسانية جمعاء في عباداتها ومعاملاتها⁽⁸¹⁾ .



يؤمنون بطبيعة الحال بكون القرآن منزلا من الله ووحيا أوحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم، على صحة نقله وانتهائه بنصه إلى محمد ﷺ (34) .

من المواضيع المثيرة عند المستشرقين ما أسموه تاريخ القرآن وقد أحاطوا هذا الموضوع بجمال من الشبهات لحجب إشعاعه على الناس ف : إدعاء غموضه (تاريخ القرآن) ويلاحظ قصور علم المستشرقين وقلة اطلاعهم على المصادر الإسلامية أو كتمانهم الحقائق العلمية الناصعة (35) .

وعن ادعائهم عدم صحة الروايات الواردة في الجمع يرد علماء المسلمين بما هو معلوم تاريخيا ويتكرر له المستشرقون، فالروايات الواردة في موضوع الجمع كثيرة فيها ما هو صحيح في اعلي درجات الصحة وفيها ما هو دون ذلك وفيها الضعيف الواهي والمنهج العلمي يقضي بالأخذ بالصحيح وترك الضعيف والواهي أو التوفيق بين الأخبار الصحيحة الثابتة . ولكن كثيرا من المستشرقين شككوا فيما هو صحيح ثابت دون ادني دليل علمي، وخلاصة موقف المستشرقين من روايات الجمع إنما هو المبالغة في الشك والافتراض وإنكار الحقائق الثابتة واعتماد الضعيف والشاذ (36) .

الباحث الموضوعي يجد الرد على هذه الشبهات ولكن المستشرقون هدفهم التشكيك وليس الحقيقة العلمية والتاريخية .

علماء المسلمين تتبعوا كل تفاصيل رحلة القرآن إلى قلوب المسلمين وتتبعوا كل ما قد يثير الشك لدى المرتبكين أو المغرضين ومن ذلك أن :

نصوص من الكتاب والسنة تبين أن تدوين القرآن كان بأمر من الرسول كما أنها تبين أن الرسول كان حريصا على تدوين كل ما ينزل عليه من



الوحي ولو كان بعض آية وهذا لا ينفي أن بعض الصحابة كانوا يدونون القرآن أو بعضاً منه تدوينا شخصيا خاصا بهم فالآثار الإسلامية واضحة وصريحة في أن التدوين وقع بأمر الرسول وعلمه ورقابته خلاف لما يدعيه بعض المستشرقين⁽³⁷⁾.

أما عن شبهة ضياع جزء من القرآن فإن الدارس للتاريخ الإسلامي يدرك أن :

شبهة ضياع جزء من القرآن هذا الزعم قديم يعود في أصله إلى الروافض الذين يزعمون أن القرآن تعرض للتحريف واستدلوا بروايات ساقطة وإخبار موضوعة ملفقة استعمل المستشرقون أغلبها⁽³⁸⁾.

اليوم مع كل وسائل التواصل وحروب اليقين ليس هناك بين كل فرق السنة وبين فرق الشيعة إلا قرآنا واحدا يتلى ويحفظ ورغم وجود أفكار عن مصاحف خاصة بالشيعة فإن دليل ذلك غير متداول .

القراءات : معركة أخرى للمستشرقين :

من المباحث التي كتب فيها بعض المستشرقين ويثيرها الطاعنون في الإسلام والقرآن مسألة القراءات وجهل أو تجاهل المستشرقين لبعض الحقائق المحيطة بعلاقة المسلمين بالقرآن، جعلهم يقعون في أخطاء علمية بادية بوضوح من ذلك :

لم يكن خط المصحف القديم سببا لنشأة القراءات أو وجودها كما حاول بعض المستشرقين ومن قلدهم أن يصوروا ذلك لأن تعلم القرآن وقراءته



كان يستند إلى التلقي الشفهي في عصر النبوة وما بعده فكان الاعتماد في نقل القرآن على حفظ المصاحف والكتب وكان تعدد وجوه القراءة معروفا في زمن النبي ﷺ قبل وجود المصاحف فكانت قراءة الصحابة متعددة بفضل رخصة الأحرف السبعة و إلى جانب ذلك كله فإن من القراءات ما كان مخالفًا لخط المصحف ولو كان الخط سببا لوجود القراءات لانهضت القراءات فيما يحتمله الخط . فلم يكن خط المصحف إذن سببا في وجود القراءات القرآنية أو اختلافها ولكن الخط كان سببا في حفظ الاختلاف الموجود أصلا لأن القراءة سنة متبعة وكان الخط حين عدت موافقته شرطا في قبول القراءة مقياسا يمنع ما لا يدخل في نطاقه مما صح من الروايات فالرسم لا ينشئ القراءة ولكنه يحكم عليها . ولو كان خط المصاحف هو السبب في نشأة القراءات كما يزعم هؤلاء لوجب قبول كل قراءة احتملها خط المصحف فمادامت القراءات هي اجتهاد القراء بزعمهم في قراءة المرسوم فانه لا فضل للواحدة منها على الأخرى⁽³⁹⁾ .

كما أن علماء الإسلام بينوا علميا أن القراءات ليست بابا لتعدد المصاحف أو اختلاف مقاصد القرآن :

اختلاف القراءات لا يبلغ بحال مبلغ التضاد أو التناقض وقد حصر ابن الجزري أنواع الاختلاف في ثلاثة أحوال وهي: اختلاف اللفظ والمعنى واحد واختلافهما جميعا مع جواز اجتماعهما في شيء واحد واختلافهما جميعا مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد⁽⁴⁰⁾ مصداقا لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ

عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82]



شاهد من أهلهم : النقد الداخلي للاستشراق :

الحيدة العلمية إذا التزم بها الباحث أوصلته إلى النتائج الموضوعية وبين المستشرقين من تحرر من قيود الانتماء الشوافيني والتعصب وشهد بالحق الموضوعي في بعض المباحث "أبو الحسن الندوي" ينقل شهادات جمعها من مضانها ونشرها في زمن كان الاستعمار والتنصير والاستشراق يصدرن من مخبر واحد :

يقول "سير وليم موير" الذي عرف بتحامله على الإسلام وصاحب رسالته حتى اضطر مؤسس جامعة عليكرة الإسلامية إلى وضع كتابه الشهير في الرد على كتابه حياة مُجد يقول "موير" في نفس هذا الكتاب : "لم يعض على وفاة مُجد ربع قرن حتى نشأت منازعات عنيفة وقامت طوائف وقد ذهب عثمان ضحية هذه الفتن"⁽⁴¹⁾ .

ولاتزال هذه الخلافات قائمة ولكن القرآن ظل كتاب هذه الطوائف الوحيد وأن اعتماد هذه الطوائف جميعا على هذا الكتاب تلاوة برهان ساطع على أن الكتاب الذي بين أيدينا اليوم هي الصحيفة التي أمر الخليفة المظلوم بجمعها وكتابتها فلعله هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصه محفوظا من التحريف طيلة ألف ومائتي سنة .

ويقول وهيري في تفسيره للقرآن أن القرآن أبعد الصحف القديمة بالإطلاق على الخلط والإلحاق وأكثرها صحة وأصاله ويقول "بأمر" مترجم القرآن المعروف إلى اللغة الانجليزية في كتابه مقدمة القرآن : لم يزل نص القرآن الذي رتبته عثمان هي الصحيفة المتلقاة بالقبول المعتمد عليها عند المسلمين و

يقول لين بول: أن أكبر ما يمتاز به القرآن أنه لم يتطرق شك إلى أصالته وأن كل حرف نقرأه اليوم نستطيع أن نثق بأنه لم يقبل أي تغيير منذ ثلاثة عشر قرناً⁽⁴²⁾

تتبع علماء المسلمين للاعترافات الصريحة أو الضمنية في كتابات المستشرقين ليس تسولاً للاقرار بنبوّة الرسول ﷺ ولا الاعتراف بالمصدرية الإلهية للقرآن ولكن ذلك يدخل ضمن معركة وشهد شاهد من أهلها .

يؤكد ما سبق ما ذكره مصطفى ماهر: أدين المستشرقون المتطرفون بفهم المستشرقين المنصفين حيث تكفل بالردّ على هذه المزاعم الكاذبة جملة من المستشرقين المنصفين لا سيما "السير وليام موير" في كتاب "حياة محمد": فكان ما تحدث فيه عن منزلة القرآن ودقّة وصوله سالماً، خير ردّ على التجنيّ والحقد الأعمى، واعتبر ذلك تهرباً عن البحث العلمي الرّصين⁽⁴³⁾

كما اعترف بعض المستشرقين بفداحة ما اقترفه زملائهم في حق النبي محمد ﷺ باعتباره مبلغ القرآن وخيانتهم للأمانة العلمية : نفوا ما افتراه الجاهلون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حالات الصرع المدعاة، لأن نوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام العطل ونفوا ادعائهم أنه لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابويّة فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه⁽⁴⁴⁾ .

يبدو واضحاً دركة السفاهة التي وصلت إليها عقول أمعنّت في الكذب والافتراء حتى أصبحت وصمة عار على من ينتسبون مثلهم الى نفس الحقل المعرفي ونظراً لفضاعة ولاعقلانية هاته التهم والشبهات فند



بعض المستشرقين هذه الادعاءات بالعقل وسفوها مبالغة بعض المستشرقين في اختلاق التهم :

أن واحدا من المستشرقين الذين عرضوا حياة مُحمَّد بشئ من الانصاف ذلك هو الكاتب الفرنسي اميل درمنجم ليذكر بعض هذا الذي كتب إخوانه في الدين فيقول لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هموة الخلاف وسوء الفهم بطبيعة الحال و ازدادت حدة. ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى اشد الخلاف فمن البيزنطيين من أوقروا الإسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم مئونة دراسته⁽⁴⁵⁾. وبمزيد من الحذر والحرص ينبه علماء المسلمين إلى أن هذا لا يعني التسليم بكل ما يقوله هؤلاء من ذلك ما نشره الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار تحت عنوان : ملاحظات على كتاب "المسيو درمانغام" المعنُون بحياة مُحمَّد⁽⁴⁶⁾. إذن بلغت لاعقلانية شبهات بعض المستشرقين حدا أصبح وبالا وعارا للمقامات العلمية التي يحتلونها والجامعات التي يعملون بها فتولى بعض العقلاء منهم مواجهة الذات والانتباه إلى العار الذي لحق بهم جراء خروجهم عن أدنى شروط البحوث العلمية .

يقول أحد المستشرقين : في العلوم الإنسانية بالذات يسود الخلاف الحاد حول المسائل المنهجية⁽⁴⁷⁾. ويدقق في التجربة الألمانية والدراسات حول القرآن باللغة الألمانية منذ القرن التاسع عشر فيقول : "كان القائمون بتلك الدراسات أساتذة جامعات أو مثقفين أو أمناء مكتبات ولكنهم لم يكونوا بالطبع مسلمين أو عربا كما أن معظمهم لم يكونوا مسيحيين أو يهودا

بالمعنى العقدي وإنما كانوا ذلك بمعنى أن خلفيتهم الثقافية كانت يهودية أو مسيحية وكان عددهم قليلا جدا كما أن قراءهم في أوروبا في القرن التاسع عشر لم يكونوا بالطبع مسلمين أو عربا لقد كان قراء تلك الكتب والأبحاث يمثلون فئة قليلة من أصحاب الاهتمام العام من الألمان والنمساويين والسويسريين أي من الناطقين بالألمانية وكان اهتمامهم ليس منصبا على الاستلام فحسب وإنما شمل أيضا الهندوسية والبوذية وكذلك عقائد الإسكيمو والهنود الحمر⁽⁴⁸⁾.

ولفهم أكثر لمسارات الدراسات الاستشراقية يوضح أيضا أن :

الدراسات القرآنية كانت لها علاقة قوية بعلم اللاهوت المسيحي ففي القرن التاسع عشر ظهرت الدراسات النقدية حول الكتاب المقدس وفي كثير من القضايا انطلق الباحثون الأوروبيون ومن بينهم الألمان من أحكام سابقة عديدة وحيثما كان من الأفضل محاولة الوصول إلى فهم أكثر عمقا كانوا كثيرا ما ينتقدون على نحو سطحي وإضافة إلى ذلك لم تكن معرفتهم باللغة العربية معرفة كافية دائما⁽⁴⁹⁾.

خيانة المنهج :

المتابعة المعرفية الدقيقة تسمح باستخراج التجاوزات العلمية من حيث المنهج ومن حيث التعامل مع المصادر . فقد نبه الباحثون المسلمون إلى الخطأ المنهجي الذي يقع فيه المستشرقون في مسألة مقارنة القرآن بالكتب الأخرى حيث :

لا يجوز مقابلة هذا الأسلوب بأسلوب القصة في التوراة لاختلاف الغرض فيهما. ففي التوراة عدا أسفار الأنبياء والأمثال والأناشيد الروحية



حوادث تاريخية منظمة تحري الأخبار مجراها الواضح العادي أما القرآن فإنه يشير إلى الحوادث التاريخية، بوثبات أو بحملات روحية خطابية لا يقصد بها تسلسل الخبر، بل يقصد بها إلى التذكير والتهويل . ولذلك ترد مرارا بحسب ما يقتضيه الكلام، وكثيرا ما تروى عن سبيل الإشارة والتلميح، والنسق الخطابي يقتضي التكرير كما هو معروف⁽⁵⁰⁾ .

ومن الأخطاء المنهجية الصريحة للمستشرقين ما ذكرها عبد الله دراز :
ينبغي أن تسبق دراسة مصدر أي كتاب دراسة محتواه أما القرآن فان دراسة مصدره تستوجب مخالفة هذه القاعدة لأن فكرة مصدره الإلهي ليست فقط جزءا من دعوته وإنما هي الجزء الأساسي منها ومن أول القرآن إلى آخره نراه يتحدث إلى الرسول أو يتحدث عنه ولا يتركه أبدا يعبر عن فكره الشخصي وفي كل جزء منه يتكلم الله تبارك وتعالى ليصدر أمرا أو ليشرع قانونا ليخير أو لينذر⁽⁵¹⁾ .

وفصل عبد الله دراز في تتبعه : والواقع أن بحوثا ودراسات كثيرة قد سلكت هذا السبيل في الماضي ومما يشرف القرآن والسنة أنهما سجلا بكل عناية وإنصاف جميع الآراء التي أبداهما معاصرو النبي ﷺ لتعليل هذه الظاهرة⁽⁵²⁾ . وتبريرها وهي تشتمل على افتراضات لا تعتمد على الحلول الممكنة والمعقولة وحدها وإنما تلجأ إلى كل مستحيل وغير معقول لا يتوانى أي عقل ساخر عن التعبير عنه للحط من شأن أي جديد مهما كانت جديته وأهميته بالنسبة للبشرية وهذا يجعلنا نقرر أن البحوث الحديثة في هذا



المجال لا تعدو أن تكون زيادة أو تكرارا لنفس الكلام القديم وإن اختلفت في الشكل والأسلوب⁽⁵³⁾ .

التوازن والاستقامة التي طبعت ردود بعض علماء المسلمين تضاف إلى الأصل المقدس وهو القرآن الذي أحصى شبهات المشككين وأبطل مفعولها وزادت السنة بطمأننة العقول المرتبكة فهي سنة كونية في مجابهة الباطل للحق والتناول عليه عندما تنقلب الموازين .

تفكيك الشبهات :

لاحظ الباحثون المسلمون أن دراسات المستشرقين للقرآن تتم في معظم الأحيان في شكل مستقل داخل إطار الدراسات الإسلامية أو في شكل مقارن داخل إطار مقارنة الأديان بخاصة مقارنة الكتب المقدسة في الأديان⁽⁵⁴⁾ .

من الموضوعات : دراسة القرآن كمصدر للدين الإسلامي ومصدر للشريعة الإسلامية ومصدر للعبادات والمعاملات في الإسلام ومصدر للأخلاق في الإسلام فقد دأب المستشرقون على عمليات تفكيك لأجزاء القرآن وفق خطط يضعونها مسبقا :

موضوع تأصيل لمسميات وتقسيمات القرآن مثل مصطلحات القرآن والقراءات وظاهرة التكرار في القرآن والموضوعات اللغوية والأسلوبية والبلاغة والإعجاز القرآني ولغة القرآن الكريم والأسلوب القرآني وغريب



القرآن أو ما يسمى الألفاظ الأجنبية في القرآن أو الدخيل السامي وغير السامي في القرآن والدراسات حول معاجم القرآن وأيضاً قصص الأنبياء ومقارنتها بما يقابلها في أسفار العهد القديم والعهد الجديد والتصور القرآني لليهودية والنصرانية والنقد القرآني لهما.⁽⁵⁵⁾

وكما سبقت الإشارة فإن المستشرقين ناقشوا قضايا ترجمة معاني القرآن وصعوبات الترجمة وقام بعضهم بعمل ترجمات لها إلى اللغات الأوروبية واهتموا أيضاً بدور القرآن في حياة المسلمين وتأثيره في بناء الحضارة الإسلامية والسلوك الإسلامي .

يحدد محمد خليفة الاتجاهات التي غلبت على هذه المحاور في :

- 1- اتجاه دراسة القرآن في ضوء علم نقد الكتاب المقدس .
- 2- اتجاه دراسة القرآن في ضوء المنهج التنصيري .
- 3- اتجاه دراسة القرآن في ضوء المنهج المقارن .
- 4- الاتجاه المرتبط بترجمات معاني القرآن الكريم⁽⁵⁶⁾ .

ويؤكد الباحث ما يتفق عليه كل باحث موضوعي من أن اتجاهات هذه الدراسات مرتبطة بالخلفية المركزية التي ينطلق منها المستشرق وعموماً يمكن تصنيف المستشرقين من هذه المقاربة إلى فريقين :

يتكون الأول من رجال الدين وعلماء دين تقليديين منتمين إلى الكنيسة الغربية على اختلاف مذاهبها ورجال دين يهود ينتمون إلى الحركات والمذاهب الدينية اليهودية المنتشرة في الغرب وهذا الفريق من



المستشرقين متدين وملتزم دينيا ودراسته للإسلام وللقرآن دراسة مرتبطة بأهداف ومصالح ديانتهم اليهودية كانت أو نصرانية ويغلب عليها الطابع الدفاعي الجدلي ضد الإسلام والقرآن الكريم .

الفريق الثاني يضم مجموعة من العلماء العلمانيين المنتمين إلى حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية في الجامعات والمؤسسات ومراكز البحوث الغربية والذين طبقوا على القرآن المناهج العلمية المرتبطة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والأنثروبولوجية والنفسية والفلسفية بالإضافة إلى ما تم تطويره من علوم دين مستقلة مثل علم مقارنة الأديان وعلم تاريخ الأديان وعلم الظاهرة الدينية لتكون مجموعة جديدة من علوم الدين إلى جانب علم الاجتماع الديني وعلم أنثروبولوجيا الدين وتاريخ الدين وجغرافيا الدين وعلم النفس الديني وفلسفة الدين علاوة على الاهتمام بدراسة الأدب الديني والفنون الدينية والأخلاق الدينية أو بمعنى آخر دراسة الدين في علاقته بالأدب والفن والأخلاق⁽⁵⁷⁾ .

ورغم اتساع فروع هذه المقاربات إلا أن الاستشراق عبر التاريخ حمل معه عيبا علميا كبيرا لا ينتبه إليه بعض الباحثين المنبهرين بالكتابات المشهورة يبين الباحث ذلك مع العلم بأن بعض الدارسين المسلمين -وغيرهم- انتبه إلى هذا العائق المعرفي بل والأخلاقي الذي ينزع عن المستشرقين صفة المتخصصين في الإسلام : إهمال الدراسات القرآنية عند المستشرقين أدى بالضرورة إلى عدم فهم القرآن الكريم نتيجة عدم التعمق في دراسته فضلا عن إهمال الدرس القرآني والتوقف في دراسة القرآن عند ترجمة معانيه إلى اللغات الأوروبية دون التعمق في مضامينه ومفاهيمه وغلبة نقد القرآن الكريم



في الدراسات الاستشراقية أدت إلى غياب الفهم وقد عكس هذا خطأ منهجيا استشراقيا وهو أن النقد يتطلب فهم الموضوع المنقود وهذا لم يحدث في معظم الدراسات الاستشراقية حول القرآن حيث سيطر القصد إلى النقد على محاولة الفهم السقوط في فهم القرآن أدى إلى السقوط في فهم الإسلام خصوصا مع رفض الوحي والبحث عن مصدر للقرآن في اليهودية والنصرانية وهناك من اهتموا بالدرس القرآني وتعمقوا فيه فأنتهى بهم الأمر إلى اتخاذ موقف معتدل من القرآن لا يخلو من الانبهار وبعضهم أسلم .

هذه الحفريات العميقة لأسس الاستشراق تسمح بإبطال مفعول شبهاته التي غزت الدراسات حول الإسلام والتي غوت بعض الباحثين فانساقوا وراءهم .

عبد الصبور شاهين نبه أيضا بدقة الباحث أن من يتصدى للرد على المستشرقين عليه أولا أن يتسلح بالمعرفة العميقة لتراثه وتاريخه ويعطي مثالا على أهمية ذلك في رده على شبهات المستشرقين حول أخطاء محتملة في القرآن واختلاف في نسخ القرآن ومخطوطاته حيث يبين معلومة مفصلية : كان بعض الصحابة يضيفون في هامش صحفهم وخلال النص بعض التفسيرات التي تساعد على تفهم النص وبخاصة إذا كان من الجمل المقحمة ما يعد أثرا عن النبي ﷺ وتفسيرا وقد كان الصحابة يميزون في نسخهم بين ما هو من النص وما هو من تفسيره وبيانه فأما حين انحدر الزمن بالناس فقد اختلط الأمر على بعضهم فاعتبروا المصحف كله نصا وظنوا أن ما كان من البيان هو آيات من القرآن⁽⁵⁹⁾ .



يشير العالم أيضا إلى الاحتيال المنهجي المعرفي الذي دأب عليه المستشرقون متحدين أبجديات المنطق والعلم : لم يعجب مسلك المسلمين جمهور المستشرقين الذين سلكوا طريقا آخر بأن يجمعوا الآراء والظنون والأوهام والتصورات بأجمعها ليستنتجوا بالفحص والاستكشاف ما كان مطابقا للمكان والزمان وظروف الأحوال معتبرين المتن دون الإسناد (كما أراد آرثر جفري في مقدمة كتاب المصاحف) وإذا صح أن يأخذ العلماء بهذا المنهج في مجال لم تتناوله محاولات السابقين فبقي مجهولا غامضا فانه لا يصح فيما انتهى السابقون من تمحيصه ونقده كلمة كلمة، حرفا حرفا، على الأساس الذي أنبنا عنه وبعبارة أخرى إذا صح هذا المنهج في تحقيق نصوص الكتب المقدسة السابقة على القرآن فلأن هذه الكتب وما لابس وضعها من ظروف وما ولاها من محاولات الإصلاح كل ذلك يدعو إلى الريبة والشك وهو شك لم يخامر عقول السابقين من أجيال اليهودية أو المسيحية⁽⁶⁰⁾.

يضيف عبد الصبور شاهين مذكرا باليديهيات التي يتنكر لها المستشرقون وينساها بعض الباحثين المسلمين وهي أنه : بالنسبة إلى القرآن فالأمر مختلف تماما فكل ما يثير شكاً أو يهيئ احتمالا تناوله الأئمة والعلماء بمنهج صارم بلغ الغاية في شموله وبلغوا الغاية في تطبيقه سواء في ذلك نقد الأسانيد ونقد المتن أن الشك المنهجي لا محل له في قضية تم قياسها ونقدها بأدق دروب الشك المنهجي وهذه نقطة الانفصال بيننا وبين المستشرقين الذين كتبوا عن تاريخ القرآن ابتداء من نولدكه مؤلف كتاب "تاريخ القرآن" المنشور عام 1860 ومن جاء بعده ليكمل منهجه⁽⁶¹⁾.



خصوصيات القرآن والوحي كانا مختلفتة عما عهدته المستشرقون ولذلك كان عملهم في الدراسات حول القرآن قليلة وضعيفة ومليئة بالمغالطات الصريحة وحتى بعض المستشرقين الذين تناولوا بعض مباحث الفكر الإسلامي غير القرآن وما يحيط به مباشرة، سرعان ما يسقطون في الجهل والمكابرة إذا تقاطعت تلك المباحث مع ما يتعلق بالقرآن . يوضح التهامي نقرة ذلك : نستخلص أنهم لا يفهمون حقيقة الوحي والنبوة ومن لم يعرف العلاقة التي تربط بينهما أو حاول أن يطبق مقاييس العلوم التجريبية أو النظرية عليهما فقد ضل سواء السبيل. ومنشأ الخلاف بين المؤمنين بالرسالات السماوية وغير المؤمنين بها ترجع أساسا إلى مفهوم الوحي عندهم⁽⁶²⁾ .

ويوضح الباحث فكرته بمثال لشخصية استشراقية معروفة وهو غوستاف لوبون وكتابه عن حضارة العرب : أخطر ما فيه إنصافه للحضارة العربية الإسلامية التي دافع عنها وأعجب بها وبين مالها من أثر في الحضارة الغربية فينخدع القارئ بمظهر الإنصاف حتى تصدمه بعض أقواله في القرآن وفي الرسول وفي الشريعة الإسلامية فيحس بالتحامل والتجافي عن الموضوعية⁽⁶³⁾ .

وكان لوبون -الذي يقدمه بعض المسلمين كمستشرق منصف - يدافع عن فكرة أن الرسول محمد ﷺ هو مصدر القرآن الحديث معا .

هذه الفرية تصدى لها علماء المسلمين بأدلة عقلية وأدلة نقلية ومن تلك الردود:



إذا كان القرآن والحديث مصدرهما واحدا وهو محمد ﷺ فبم نفسر هذا الفرق الكبير والبون الشاسع بينهما في أسلوب العرض وطريقة الأداء ومنهج التعبير⁽⁶⁴⁾ . ما الذي كان يصد الرسول عن نسبة شرف القرآن العظيم إليه لو كان من إنشائه وتأليفه⁽⁶⁵⁾ .

ويضيف الباحث ردا آخر : و لا أدل على أن الوحي القرآني خارج عن الذات الحمديّة من مخالفة القرآن في عدة مواطن لرأيه الشخصي ولطبعه الخاص..

الآية 67 والآية 68 من سورة الأنفال : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ تَرْيَدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٦٧)
لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لَمَسَكُمُ فِي مَا آخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾
والآية 43 من سورة التوبة : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴾^(٦٩)

كما أن البحث عن أصل للقرآن في اليهودية والمسيحية بحث تبطله الحقائق التاريخية : أن ما يدعيه المستشرقون من إفادة الرسول من حاشيته اليهودية والمسيحية الذين أسلموا وكانوا في صحبته هو محض افتراض لأن إسلامهم حجة قائمة على صدق ما جاء به الوحي الإلهي ولو تبين لهم أنه كان يتلمذ لهم في خفاء ليتلقى عنهم ما كان يدعو إليه لانفضوا من حوله ولعادوا إلى دينهم ولم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة في الدعوة إلى الإسلام .



الكتب والمواقع الخاصة بالكتب بالإضافة إلى مواقع على مختلف منصات التواصل الاجتماعي تلاحق الشبهات وتنظمها وفق ملفات كما تضع الردود عليها في متناول الباحث عن الحقيقة واليقين⁽⁶⁶⁾.

- نماذج من تشريح العمل الاستشراقي حول القرآن :

من أيجديات البحث الموضوعي أن من يتصدى للرد على المستشرقين لابد أن يقرأ لهم في مصادرهم لذلك : لا يتصور باحث موضوعي أكاديمي أن ينتقد الاستشراق دون الإلمام بلغاته أو بإحدى لغاته الرئيسية⁽⁶⁷⁾. كما أن التحليل العلمي والموضوعي لما أنتجه العقل المسلم رداً على المستشرقين يقتضي سرها وتقسيمها : يمكن تقسيم مواقف العلماء المسلمين من الشبهات إلى خمسة أنواع كما صنفها محمد البيانوني :

- 1- موقف العلم بها وبأسبابها ودوافعها والرد العلمي عليها .
- 2- موقف الغفلة عنها وعن أسبابها أو التساهل معها حتى شاعت في صفوف كثير من المسلمين .
- 3- موقف التأثر بها وتصديقها والدفاع عنها .
- 4- موقف الرد عليها رداً عاطفياً مجرداً لا يقوى على دفعها .
- 5- موقف الدفاع الضعيف المنطلق من مركب النقص الذي أصاب كثيراً من شباب المسلمين في العصر الحديث⁽⁶⁸⁾ .

ويمكن إيجاز مراحل التعامل مع التراث الاستشراقي بناءً على ما كتبه المهتمون :

انطلق مفهوم نقد الاستشراق في بدايات النهضة العربية عندما لاحظ المفكرون العرب والمسلمون دخول عنصر الاستشراق بقوة في دراسة التراث العربي الإسلامي فكان الانبهار بهذه الجهود العلمية التي يخدم بها المستشرقون تراثاً غير تراثهم وكاد الإعجاب من قبل المفكرين والمثقفين العرب والمسلمين يطغى على الإسهامات الأولى في انطلاقة نقد الاستشراق حتى قيل أن المستشرقين قد فهموا الإسلام أكثر من فهم أهله له . ومع الحركات الإحيائية التي عمت العالم جرت مراجعات لإسهامات المستشرقين بشكل هجومي وتعميمي على كل إسهامات المستشرقين وتم ربطها بالاستعمار والتنصير ودخل في النقد التعميمي للاستشراق هذا مفكرون وعلماء بعضهم لا يعلم عن الاستشراق إلا ما جاء به من سلبات مصادر ين على الإيجائيات التي خدم بها الاستشراق التراث أو التهوين منها⁽⁶⁹⁾ .

وبتراكم المواقف والتجارب البحثية اتضح أن أمام الموقف المنبهر القابل لكل ما يقوله المستشرقون والموقف الراض لكل إسهام للمستشرقين هناك :

الموقف الثالث الذي راعى النظرة الوسطية فآخذ وترك من منطلق أن كلا يؤخذ من كلامه ويرد إلا من عصم الله من الأنبياء والرسل⁽⁷⁰⁾ .
هي نظرة العلماء المهتمين بالاستشراق ويسمونها أحد الباحثين :
"النظرة النقدية الهادئة المعتدلة للاستشراق واتجاهاته"⁽⁷¹⁾ .

علماء المسلمين بعد السير والتقسيم لشبهات المستشرقين التي دسوها في دراساتهم -التي تحمل بعض الحقيقة الموضوعية -لاحظوا أن بعض الشبهات سبقهم إليها كفار قريش واليهود والمسيحيين وأضاف إلى ذلك



الباحث مُجَّد داوود ملاحظة غاية في الدقة والعمق : أكثر المطاعن التي توجه للقرآن اليوم مأخوذة من هذه الكتب السابق ذكرها :

- الرد على ابن الراوندي الملحد للجاحظ
- كتاب مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري
- كتاب التمهيد وإعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني
- كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن.
- كتاب : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه لعباس محمود العقاد
- كتاب شبهات حول الإسلام : مُجَّد قطب⁽⁷²⁾ .

ويضيف إلى ملاحظته تلك ما يعطيها الواجهة أكثر : غاية ما في الأمر أنهم نقلوا الشبهة واغفلوا الرد عليها مع المبالغة والتنويع في عرض الشبهة حتى تتعدد الشبهة الواحدة في عشرات الصياغات فيهيأ لك أنك أمام عشرات الشبهات وليس أمام شبهة واحدة بل زادوا فوق إثارة الشبهات والافتراءات كيل التهم للقرآن ولنبي القرآن سيدنا مُجَّد وللمسلمين وبطبيعة الحال فإن التهم والشتائم ليست شبهات والأعراض عنها خير دواء لها⁽⁷³⁾ .

وضمن مشروع موسوعة القرآن في إطار مشروع بيان الإسلام الذي استخدم منصات الاتصال الجديد في ملاحقة الشبهات وعرض ردود العلماء . جاءت المحاور التالية : كانت الحاجة ماسة إلى موسوعة القرآن الكريم في مواجهة الشبهات ضمن مشروع بيان الإسلام والرد على الافتراءات والشبهات وجاءت النتائج كالتالي :

المجلد الأول : الجزء الأول : الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها .



المجلد الثاني : الجزء الثاني : شبهات حول توهم من أخطاء لغوية في القرآن .
المجلد السابع : الجزء الحادي عشر : شبهات حول سلامة القرآن وتماحه .
الجزء الثاني عشر : شبهات حول عصمة القرآن و كماله ⁽⁷⁴⁾ .

وتم التطرق في الموسوعة أيضا إلى محور أساسي يتعلق بالحوار مع الآخر والذي يعد الاستشراق والرد عليه جانبا منه وجاء تحت عنوان : "قواعد المنهج القرآني وضوابطه في الحوار مع الآخرين" :

- 1- رفض الدعاوي الخالية من الدليل وطرح الاتهامات المفتقدة إلى برهان .
- 2- طرح الدعاوي القائمة على الظن والوهم .
- 3- المناقشة العقلية التي تعتمد على قواعد العقل وبديهياته ومسلماته .
- 4- الجمع بين العقل والنقل في الرد .
- 5- الاستدلال بالمذهب الكلامي الصحيح .
- 6- ضرب الأمثال في أثناء الرد لتوضيح الفكرة وتقريبها وإقناع المخاطب .
- 7- نقض الدعوى جملة وتفصيلا .
- 8- عدم الاكتفاء بنفي الادعاء دون الاستدلال .
- 9- استعمال البلاغة في الرد والإيجاز في الجواب عن شبه الخصوم .
- 10- دعوة الخصم إلى التركيز في القضية محل النزاع والتأمل في حقيقة الأمر وترك التقليد والهوى .
- 11- الدعوة إلى تدبر القرآن والنظر في معانيه .
- 12- قراءة التاريخ والواقع العملي .
- 13- بيان الحكم والمصالح والمقاصد من الأوامر والأحكام والتشريعات الإلهية .



لا يمكن إلا مباركة العمل العلمي المتواصل الذي يقوم به باحثون مسلمون حول إنتاج المستشرقين حول القرآن كل ذلك ضمن سنن الله في التدافع بين الخير والشر .

من الجهود في الذود عن القرآن وصد الهجوم عليه والتنبيه إلى مغالطات المستشرقين ما قام به الدكتور "محمد حسين علي الصّغير" في عمله وشرح خطواته :

- 1- حاولت الفهرسة تصنيف أغلب الأبواب والموضوعات والدراسات والبحوث والمؤلفات والتحقيقات والتراجم والتعقيبات في الموضوع والإشارة إلى زمان ومكان طبعها ونشرها قدر الإمكان .
- 2- احتجت إلى ترجمة بعض النصوص، من الإنكليزية .
- 3- احتجت إلى الاستعانة ببعض الأساتيد في الألمانية .
- 4- احتجت إلى الاستعانة ببعض الأساتيد في عملية الإحصاء استيعابا واستقصاء، لئلا يكون النقص في البحث كبيرا والهوة واسعة.
- 5- كانت المراجع للموضوع ما كتب عن المستشرقين، وما كتبه المستشرقون أنفسهم .
- 6- ما كتب عن المستشرقين كان دليلا هاديا إلى اكتشاف المجهول، واستقراء ترجمة الجهود، وإضافة قائمة بمؤلفات لم يحصل عليها ولم يطلع على أسرارها .
- 7- ما كتبه المستشرقون في موضوع القرآن كان مادة البحث الأولى التي اعتمداها في النصوص والتقييم والنقد .

8- من خلال هاتين الحصيلتين سلطت الأضواء على كوامن البحث في مصادره القيمة ومعالمه المتشعبة. وكان ذلك بفضل جمع ما تناثر هنا وهناك ولم يثمله وشعته من صروف الشتات والتمزق، فعاد مجتمعنا في بحث ومتداوله في كتاب .

9- من خلال استقراء الجهود الاستشراقية في الدراسات القرآنية وجدنا أهم أعمالهم تدور حول الموضوعات التالية بحسب أهميتها عندهم ، أو بحسب ما أنتجوه فيها :

1- تاريخ القرآن الكريم وكل ما يتعلق بأسباب نزوله وتاريخ سوره مكيه ومدنيه وقراءاته ولهجاته وتدوينه وكتابه وما دار في هذا الفلك من رأي أو نظرية أو فكرة .

2 ترجمة القرآن إلى مختلف اللغات العالمية والألسن الحية ترجمة حرفية أو تفسيرية أو لغوية جزئية كانت أو كلية .

3- نشر ما كتب عن القرآن وما ألف فيه وتحقيق النصوص القديمة في آثاره والتدوين والفهرسة بمختلف الأصناف .

4- البحوث العامة والدراسات المتنوعة التي تنشق عن القرآن في علومه وفنونه وبلاغته ومسايرته للحياة في الفن والفلسفة والاجتماع⁽⁷⁶⁾ .

بعد عملية الرصد قام الباحث بخطوة أخرى شرحها في : تقويم نقدي لأشهر الجهود الاستشراقية في الدراسات القرآنية تاريخيا وتدوينيا وتفسيريا وموضوعيا كشفنا فيه طبيعة الفهم الاستشراقي للقرآن وتوثيق القرآن عند المستشرقين من ينابيعه الأولى .



وترجم الباحث جهوده في عمل وصفي تحليلي اعتمادا على قواعد البحث العلمي بشقيه الكمي والكيفي حيث يضيف : "صنفنا معجما إحصائيا بأبرز الدراسات الاستشرافية للقرآن الكريم وبوبنا ذلك أبجديا"⁽⁷⁷⁾.

وما فعله الباحث هو صدى لجهود العقل المسلم في الدفاع عن حقهم وواجبهم في حماية مقدساتهم مع اليقين أن الذي أنزل القرآن تكفل بحمايته وما يفعله المسلمون هو تأكيداً لذلك .

تجربة أخرى بنفس المقاصد قام بها باحث آخر حيث قدم دراسة تحليلية نقدية لأراء المستشرقين حول القرآن متبعا في ذلك فيها خطوات أحصت شبهات المستشرقين ومن ثمة صنفها كالتالي :

- 1-فصل حول شبهات المستشرقين حول مصادر القرآن الكريم .
- 2-فصل حول شبهات متعلقة بنص القرآن الكريم .
- 3-فصل حول شبهات متعلقة بجمع القرآن الكريم و شبههم حوله.
- 4-فصل حول شبهات متعلقة بشكل القرآن الكريم و مضمونه و شبههم حوله
- 5-فصل حول شبهات متعلقة بالقراءات القرآنية وشبه المستشرقين حولها.
- 6-فصل حول شبهات متعلقة بالأسلوب القرآني وشبه المستشرقين حوله
- 7-فصل حول شبهات متعلقة بإعجاز القرآن الكريم وشبهات المستشرقين عليه⁽⁷⁸⁾ .



لقد جمع عمل الباحث بين التحليل والنقد وبين المقاربة العلمية والإلزام الديني وهذا منطقي جدا إذ الإسلام جاء بقواعد وأصول موافقة للعقل والفطرة وإذا كان المشككون يصلون بمعاولهم إلى أسس الدين ولم تقنعهم حجج الدين العقلية والفطرية فعليهم احترام تلك الأسس لأن الهدم أسهل عملية لمن يجافي العقل والمنطق ويجرب عقله بمرض السفسطة .

من الشبهات التي يتوقف عنها الباحث شبهة أن : الإسلام دعا إلى الوحدانية بتأثير الوسط الوثني الذي نشأ فيه الإسلام⁽⁷⁹⁾ .

والرد المنطقي العقلي من الباحث جاء كالتالي : "دعوة المصطفى ﷺ للوحدانية لم يكن بتأثير الوسط الوثني كما زعم المستشرقون بل هي صدى للدعوة الأولى دعوة إبراهيم عليه السلام لأن أصلهما واحد والقرآن الكريم مليء بالآيات القرآنية الداعية لوحي الله"⁽⁸⁰⁾ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : 120] .

رد العلماء أيضا على شبهة الأصل الوثني للقرآن الذي أراد المستشرقون تثبيته اعتمادا على آراء ملفقة لا تستقيم في الفهم المنطقي كالتقارب الموجود بين الشعر الجاهلي وبعض الآيات القرآنية كما أن بعضهم أراد تلفيق شبهة مصدر القرآن في الحنفية الذين عرفتهم شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام اعتمادا على ابتعاد الحنفية عن عبادة الأصنام ومناجاتهم لإله واحد وإيمانهم بالوعد والوعيد ودفاعهم عن الفضائل الأخلاقية وأراد المستشرقون إغالا في سفاهة شبهاتهم الربط بين القرآن والصابئة التي تشابهت بعض معتقداتهم وشرائعهم بما جاء به الإسلام كالصلاة وارتباط المواسم



الدينية بالقمر والحج ولم يتأخروا في البحث عن أصول للقرآن في الزرادشتية والبراهمية الهندية واليهودية والمسيحية .

تناول علماء المسلمين هذه الشبهات وبينوا سفاهتها عقليا وابتعادها عن المنطق والعلم وبينوا خطأ المستشرقين الذين أرادوا نفي المصدر الإلهي للقرآن بأية طريقة وإن كان بالتلفيق الفاضح .

علماء المسلمين بينوا أن النبي إبراهيم عليه السلام الذي بنى الكعبة مع ابنه إسماعيل جاء بالتوحيد وورث العقيدة التوحيدية لأبنائه، وبالتالي التوحيد هو الأصل والثنية هي الطارئ ووجود بقية معتقدات توحيدية أمر منطقي .

ونفس الشيء بالنسبة للحنفاء أبناء نفس البيئة فهم يبحثون عن الأمان الروحي بعيدا عما يرونه من انحرافات عقدية وأخلاقية في المجتمع الجاهلي وأثناء بحثهم يطلعون على كتب وآثار الآخرين ويهفون السمع إلى الأخبار التي تؤرخ للإنسانية والتي لم تخل مراحلها المختلفة من نداء التوحيد من نبي أو رسول حي أو بقايا نبوة أو رسالة تعيش بين ظلام الجاهلية، والدارس للتاريخ الديني لشبه الجزيرة العربية يكتشف ما يريد المستشرقون إغفاله عن الأحناف وهو :

ليس هناك كتاب معين يتبعون أحكامه كما ان تصرفاتهم يغلب عليها الطابع الخلفي أكثر من الطابع الديني وقوم هذه عقائدهم المضطربة لا يمكن أن تكون أحكامهم وتصرفاتهم من المصادر الرئيسية للقرآن الكريم الذي يحتوي على تعاليم وأحكام واضحة جلية لا لبس ولا غموض شرعت لتنظيم الانسانية جمعاء في عباداتها ومعاملاتها⁽⁸¹⁾ .